هلوصدا الوصاية

العشر

"عصام عيسى"

obeikandl.com

هلاوس الوسادة العشر
عصام عيسى / كاتب مصري
الطبعة الأولى يناير 2017
978 -977 – 6445 -67 -3 /ISBN
رقم الإيداع:2016/10440

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

غلاف: NileDesign.com
دار الابداع للنشر والتوزيع
موقع دار الكتب
أبراج عثمان- كورنيش المعادي
القاهرة - مصر
هاتف: 01002052266
E-mail: info@daralkotob.com
www. daralkotob.com

Daralkotob.com

هلموحدا الوحدانة

العشر

دار الكتب
Daralkotob

opeikandl.com

obeikandl.com

إهداء.....

إلى من تو فاها الله مبطونةً بالسرطان ونحن صغار
ووَسّدْنَاها الثرى.... بقلب راضٍ... ونفس مطمئنة
إلى أمي.. رحمها الله

obeikandl.com

obeikandl.com

تلك اول عمل لي.. تجربة ساقها حلم في الصبى..افكار خطها القلم دونما اسراف... انملة في طريق الادب اللا متناهي.. لن ابلغ مثل ما بلغوا.. ولكنها افكارا تحولت الى عبارات وقصة مستوحاة ليست من الواقع في شئ وانما قالب شكل به ما اردت ان اوصله من هلاوس عبثت بمخيلتي.... وما خط بها لا علاقة له بالواقع في شئ، كل ما هنالك ان احداثها لا تعدو ان تكون مجرد اعمدة قامت عليها جدران روايتي الاولي... اردت ان افضح بعض هلاوسنا على الوسادات.. ان اعبر جسر الجبن المقام على ضفاف احلامنا المخفاة في نفوسنا. فسامحني ايها القارئ العزيز على كل اطالة ان كان فيها ملل وكل تقصير ان كان فيه جلل..

obeikandl.com

كانت البلدة ساكنة في تلك الليلة من ليالي الشتاء القارص، والبرد والصقيع قد أنهك كل لهث وراء المادة، وأخمد كل شهوة للمال، وأسكت كل ضجيج المقاهي للكسالى.. سوى مقهى اعتاد ذوو الهامات العالية والياقات البيضاء التجمع عليه ليلًا؛ ليروي كل واحد منهم بفخر وتعالٍ موقف تافه لا يجسد سوى السعي خلف لذة إثبات الذات وإثبات أفضلية كل منهم على الآخرين....

فيروي أحدهم موقفًا تعالى فيه على آخر، ويروي الثاني شبيهه ولكنه قد سب ولعن هذا أو ذاك، أما الثالث.. فشغله الشاغل ملبسه وسيارته ونظارته، والباقون أشباه بعضهم البعض..

يتقاصون الروايات ويتحاكون الخرافات، وينسون أنهم ما اجتمعوا إلا لخيبة أملهم في المستقبل ولفقدانهم ذاتهم، فلم يبرحوا مضاجعهم إلا عندما أفلت الشمس ولوحت بالمغيب.

هم يبدأون يومهم حيث انتهى الآخرون.. يفتتحون اليوم وقتما يختتمه أصدقاؤهم الذين يجلسون على ذات المنضدة بذات المقهى، وهناك. . كنت أتلفت يمينًا ويسارًا. . لا أنقصهم عارًا حينما أحدث شبيهي في الفقر والكفاح عنهم.

فلا طالة لنا بمن تجمعت الأموال تحت أقدامهم وبعثروها تحت براثن القلق والتوتر، واتخذوا منها نهرًا يرتشفون منه حفنةً بعد حفنةً إذا لاح لهم مرور قطار العمر.. دون شعاع أمل يتسلل من بين حنايا نافذة البطالة، أو حتى من تحت أعقاب أبواب الفراغ...

كنت أختلس الحديث، وكلانا ينظر إليهم نظرة شفقة.. لا حسد أو طمع؛ فرغم قلة راتبنا من وظيفة أنعم الله علينا بها.. إلا أننا عندما نتجمع ليلًا أستمد قواي من شراشف السرير الذي ضاجع الزمن عليه أحلامهم البائسة؛ حتى حملت بين أحشائها طفلًا سفاحًا هو اليأس والفراغ.. طفلًا عصر البطالة الذي تفشى بين الجموع...

طيف خفي يجمع بيننا في بلدة لا تحمل سوى الضجيج نهارًا والهدوء ليلًا..... في النصف الأول من يومها هي غابة.. وسكانها وحوش.. الكل يعوي.. الكل يعدو.. والكل يتربص بغيره؛ فلا مكان في الغابات للضعفاء، أما ليلًا. . فهي كالطفلة الموءودة خوفًا من عارها، أو كالمقابر وسكانها أموات قد ضمتهم قبورهم.. بيوت كالمقابر.. بيوت جثث لا تعرف الله...

ويلوح البرد عندما يشتد لنا لنعود لمنازلنا.. هكذا كنا، وهكذا كانت بلدتنا، وهكذا بدأت قصتنا، وهكذا كانت سببًا لنهايتي.. فمن البداية تنتهي، ومن القطع الوصال.

ومن دائرة الحياة نقطة بدايتك هي نقطة نهايتك.. ومن اللون الأسود والأحمر نسجت أقدارنا.. فمن الحزن والدموع خلق المداد الأسود لأقلام الدهر، ومن الدماء خلق المداد الأحمر لريشة رسام المصائب، ولا حاجة لنا بسائر الألوان؛ فما هي إلا أوراق لدفتر يوميات الحياة.....

الهلوسة الأولى

بداية الدائرة هي حفل زفاف أحد أصدقائي القدامى، وما حضـرته إلا لظنه فيّ بأنني الصديق المخلص له في هذا العالم -وتأكيدًا لذاك الظن- لم يكن حضوري تأديةً لواجب؛ فقد أديت من الواجب ما يكفيني، ولا بحثًا عن أنثى وزوجة أخرى غير تلك التي تزوجتها ببلدتي؛ فلديّ من الهموم ما يكفي أن يقتل بذور تلك الفكرة في عقلي كلما حاولت أن تنبت.

حفل زفاف مقام في إحدى قاعات دار الدفاع الجوي.. وقد ارتديت بذلتي الجديدة، كنت أستحسنها من بين مجموعة بدل ابتعتها من فائض المصانع.

حفل زفاف وكأنه أقيم لي وحدي لأخترق ذلك العالم الذي كنت أخشاه، فما عرفت في حياتي منذ نعومة أظافري سوى البؤس والحزن.

أتجمل وأتزين وأبدل في ملابسي أمام مرآتي - لا لأبهر من سألقاهم هناك - وإنما لئلا أكون غريبًا عنهم، قروي مسكين يتحسس خطاه بين الحاضرين، ينظر في كل لوح زجاج أو مرآة ليتأكد فقط أنه ما

زال بخير، لا زال مهندمًا ورابطة عنقه كما هي تطوقه كما طوق بمن حوله.

يحاول أن يبدو بخير وطبيعيًا؛ فلا يقوى، ينظر إلى الحاضرين كأنهم أرستقراطيين وهو من البوليتاريا، لا يملك إلا أن يصفق متخشبًا مثلهم وابتسامة خفيفة مقيدة بأوداجه الحزينة.

فلقد تحولت قناعات الناس.. فالمهم لديهم هو ظاهرك، ملابسك، مقتنياتك، تصفيفة شعرك، ملامحك. أما باطنك وجوهرك، حقيقتك، لا دخل لهم بها.. الخداع هو الرداء الذي نلبسه لنخفي به حقيقتنا؛ فنقنع به كافة من حولنا حتى أنفسنا، ولا نجني سوى مزيد من الخداع والكذب كرد عطاء ممن خدعناهم، حتى المرآة تخدعنا فتعكس شخصًا غيرنا، نخدع وسادتنا؛ فتمنحنا مزيدًا من الأحلام الزائفة المرصع بها ذاك الرداء المزيف الذي ألبسناه الجسد.

أعلم أن الجميع مخادع.. الكل يتجمل ويتزين.. حتى ضحكاتهم مصطنعة.. لا دخل لهم بمأساتهم الدفينة في نفوسهم.. لا حسابات لتحملهم أفعالًا ومواقف وأشخاصًا طوقتهم كرابطة عنقي.. فقط من أجل الناس. . هربًا من قضبان القيل والقال.. حتى ذاك الشاب الممسك بيد زوجته الجميلة يحدثها ويهمس بأذنها، وعيناه تتقافزان على كل النساء اللاتي وجدن.. خداع متقن.. وكذب مباح.. كل ذلك من أجل البقاء.

أدقـق وأتامـل في نفسي- وفي الحـاضرين، ولا أعلـم لم أفكـر في حقيقـة الأفعـال ودوافعهـا دون جـدوى.. فليخـدع مـن يخـدع، وليكذب من يكذب؛ فأنا أيضًا أعد نفسي- لأتعلـم فنـونهم، لأصـبح مألوفًا، وأخفـي كـل قـيم القـرى المفضـوحة، وكـل عـادات الفطـرة المنبـوذة، لأحـرر أحلامـي مـن قيودهـا، وأفـر مـن الوسـادة لبضـع لحظات، أعلم أنني سأرجع بعدها منكس الأحلام.

وما بين تلعثمي وارتباكي، دقت طبـول القلـب عـلى أوتـار شراييـنـه، رأيتها هناك.. فتاة خمرية اللون في وسط القاعة.. نحيفة ممشـوقة، وفسـتانها الأسـود كشر-يط حـداد عـلى المـاضي بقلبـي، وشـفاهها الحمراء إشارة حمراء لكل خيال سافل، مسترسل شعرها الأشقر على أكتافها وكأنه يداعبها سرًا، زحـام مـن حـولي، مفاتنهـا زحـام بعقـلي شلت حركة مرور الدم بالشريان.

وعلى الرغم من أنني تربيت على أن كل أنثـى تعـرت في جـزء مـن جسـدها هـي فريسـة سـهلة لقليـل مـن المتعـة وكثـير مـن إثبـات الذات. . ولكنها لم تكن فريسةً، كانت الصائد دون أن تشعر، وكنـت أنا الفريسة.. أنـا المكبـل بشـباك أنوثتهـا الطاغيـة، السـاقط في فـخ حيويتها وحركاتها الجنونية، أنا الفريسـة السـاذجة.. القـروي الـذي طالما حلم بقصة ينتهك بها كل ما ألفه يومًا.

كانت تتحرك كسندريلا وتتراقص كطفل يبعثر أجزاء جسده دون حسابات.. يكفي فقط ليبهر الحاضرين أن يهتز؛ فيفوق كل راقصة في جذب الانتباه إليه...
كانت تتمايل كما تتمايل أوراق الشجر المحملة بقطرات الندى؛ لتتصبب منها لتروي ظمآن مثلي....

لا أعجز مني حينها ولا أضعف مني أمامها.. قد جثت ركبتا غروري أمام جبروت شخصيتها، وانحنت كل آمالي العريقة أمام طغيان جمالها.. تعالت أنفاسي، وأحسست أنني وحدي.. عدت كطفل ملائكي وحدي، وكأنه قد انصرفت كل جموع شياطين الحاضرين، أو ما حسبتهم شياطين؛ فهم من منعوني أن أحدثها...

هم من حجبوها لثوان ولحظات، تحركاتها بأشباحهم التي تتوارى فيهم، وتتقافز على صحراء قلبي لتصنع من قفزاتها - دون أن تدري- عاصفةً أخمدت ووارت كل جروح الحب قبلها، وكل رياح كاذبة لم تحمل إلى قلبي سوى حبوب لقاح للحزن والألم واليأس؛ فلم تثمر إلا الندم والعصيان.

لم آبه بالحاضرين، وجهها طغى على كل أضواء الفرح المتضاربة، أنتبه إليها لدرجة أنني قد أسمع صوت أقدامها وسط كل الضجيج، الإعجاب يوقظ الانتباه بجميع حواسك لتعمل جميعها في آن واحد لشخص واحد والعزلة عما يدور حولك.

كانت هناك في آخر القاعة، لا.. أنا من كنت هناك بكل جوارحي حتى انتهت مراسم الفرح واستقلت سيارةً مرسيدس فارهةً بجوار شاب في قرابة الثلاثين من عمره، ولأول مرة ترتجف أعصابي وتتناوب الأسئلة في عقلي الواحد تلو الآخر.. ماذا إن كان حبيبها؟ أو كان خطيبها؟ أو كان زوجها؟

لا أريد ما عكفت عليه من علاقة آثمة أو مدنسة.. لا دخل لها بأحلامي السافلة التي اعتدت عليها كلما ألقيت برأسي على الوسادة.. شيء بداخلي يصرخ بأن طهارتي لديها.. وأحلامي في مقلتيها.. أريد بكارتها وبراءتها دون مساس بدناستي ونجاستي!!

وتتابعت الأسئلة الحائرة في ذهني. . ماذا إن كان يعني لها شيئًا؟ هل هوأفضل مني؟ هل وهبها شيئًا لم يوجد عند غيره؟ هل وهل ومليون هل وهل... وأنا أتوسل إلى صديقي ألا تفلت سيارتها منا....

لقد تولدت الغيرة في صدري قبل أن أقيم معها علاقة.. فما الحب إلا أنانية مطلقة ومبعثرة لمن أحببت حتى تنازعه فيما يحب ويبغض. . أن توجد في كل أفعالها حتى وإن كانت أفعالًا ممنوعةً.. تلك الأفعال تصبح مباحةً إن كنت فيها.. حتى صرخات جنونها تود أن تكون فيها وسببًا لها، ومن أجلك أطلقت كل صرخة..

الحب هو الأنانية، بل الأنانية هي الحب المطلق لمن أحبته الأنا...

أفكار وأفكار.. حتى توقفت السيارة أمام كشك سجائر؛ فانتهزت الفرصة لأشتري سجائري التي ما نفدت إلا لبعثرة ما امتلأ برأسي من أسئلة، وأمام كشك السجائر أنا ورفيقها نقف لنفس الغرض: السجائر...

أنا لأبعثر أفكاري بشأنها، أما هو.. فذلك منبع أسئلة أخرى استعمرت عقلي؛ حتى طاح بي الخيال بعيدًا لأتصور أنها هي من تدخن...

سيئ أن تتعلق بشخص.. سيئ أن تحبه.. تبتغي فيه الفضائل وتفترض فيه كل الرذائل والظنون، ولا ذنب له سوى أنك تعلقت به؛ فعلقت به كل ما عرفته وتعلقت به يومًا...

ولا ندري.. من نحب؟ وبمن نتعلق؟ هو.. أم أنفسنا التي أرادته؟ ولماذا نحب شخصًا بعينه دون سواه؟ ولماذا ذلك الشخص من دائرة حياتنا نحن؟ وهل هناك في دوائر الآخرين أشخاص قد نغرم بهم أكثر؟

وهل الأقدار هي التي أرادت أن تمنع أحدهم لنقع في حب آخرين ما أحببناهم إن تقابلنا مع هؤلاء؟ ولماذا الجميلة في عيني قبيحة في عين غيري؟ ولماذا الجذابة لقلبي فاترة لقلب غيري؟

أسئلة وإجابات، والحقيقة أننا لا نحب إلا أنفسنا التي أرادت، هي من اختارت وفقًا للثوب الذي حددته ونسجته سلفا.. هي من هَذَّبَت أطراف ثوب الحب وفَصَّلَته لمن سيرتديه، وكل ما هنالك أننا وجدنا الشخص المناسب لذلك الثوب بعد العناء، فلا نخلع عنه الثوب أبدًا لكي لا يتعرى أمامنا؛ فنصدم من حقيقته؛ فنبحث عن لابس للثوب في مكان وزمان آخر، ولا دخل لنا بالعشق؛ فالعشق شيء آخر غير كل ما يحكى عنه.

نحن نرى مئات الفتيات والنساء، قد نشتهي إحداهن، ولكننا لا نعشقها دون مقدمات.. لا يأتي العشق هكذا، مخطئ من يظن ذلك؛ فللعشق أعمدة من الود والاحترام والرحمة والعشرة يرتكز عليها؛ لتبنى عليها أطواره، إعجاب فحب فعشق فشغف، ولا حاجة لي حينها بكل تلك الأسئلة، يكفي أنني أعجبت بها دون غيرها.
أريدها ولا سبيل أمامي سوى أن أتخطى كل تلك التساؤلات، وفلسفتي التي لا جدوى منها؛ فأنا لا أقوى على شيء سوى أن أرتمي على أعتابها، كما أرتمي بجسدي على الوسادة.

سأتمرد؛ فكم من الأحلام وَلَّت دون أن أدري، وكم من أيام في عمري أدبرت دون أن أندم، وعمري ليس بالهين علي، ويقيني أن هناك ما بين أنفاسي نفس سيتمرد ويقتل كل الأنفاس الأخرى؛ ليسقط كل أنظمة الجسد؛ ليرديني قتيلا، ولن تغفر لي كل جيوش الصبر.

سأغتنم الفرص، ولن أخشى من هزيمة الضعف أمام عينيها، ولن أفتح أبواب عالمي الذي خلفته قريتنا فيّ، سأتغير وأجرب دون حسابات للخسائر، ولن أخشى المداد الأسود ولا الأحمر، فليخطط القدر بأي لون شاء.

سأرقبها وأبحث عنه، سأخرس كل مبادئي القديمة وقناعاتي الخاوية، ولن أصنع من وسادتي جـ سرًا أعبر به كل ليلة إلى عالمي الخيالي.. فتحملني إلى أرض لم أكن بالغها يومًا.. وإلى زمن لم أعش فيه.. وإلى أقدار ملونة بغير لوني الأحمر والأسود. . وإلى شخص لم أعرفه يومًا.

ولن أتلصص عليها دون جدوى كما كنت أتلصص من خلف شباك شرفتي على جارتنا، لن أظل حبيس دائرتي، وسأتسلق جدرانها وأهرب متخفيًا بثوب جديد، لأمر من بوابات النفاق إلى دوائر الآخرين، تاركًا خيطًا خفيًا يعيدني لدائرتي إن ضلت خطاي؛ فهناك زوجتي. . هناك حب لم يمت بيننا يومًا.. إنما هو التمرد ليس إلا.

هو الانحراف.. هو الدراكولا الذي يستدرج فريسته لينقض عليها ويغرس نابي الملل في جسدها المستسلم وهمًا؛ ليصنع منها دراكولا آخر.. تفعل ما فعل بها.. وتخدع كما خدعت.

لا سبيل أمامي؛ فدراكولا الانحراف هو السيد في زماننا.. هو السم الذي نظنه عسلًا.. هو القضبان التي تسير عليها قاطرة مجتمعنا، هو الرافعة التي ترفعك عاليًا لتصل إلى عنان السماء كلما كانت جعبتك مليئةً به.

هكذا كنت أقنع نفسي حينها، وتاهت أفكاري.. هل هو حب ولد في وقت الميعاد؟ أم هو دراكولا سيغرس نابه بجسدي؟

وهل كنت مصابًا بذاك الفيروس وأنا بقريتي؟ أم إنه لا يصيب إلا سكان المدن؟ وكيف وقد ظهرت أعراضه حينما كنت أتلصص على زميلاتي بمدرستنا؟ وأتجسس على جارتنا الجميلة من ثقب بنافذة حجرتي...

ربما لم تظهر أعراضه إلا حينما ساد الظلام في حياتي، وأوصدت بوابات عالم الأحلام حتى على الوسادة.

ربما لم أعرفه إلا حينما ذقت مراره على يد سكان قريتنا؛ فاعتدت عليه، جائز فيه الإدمان من أول رشفة، مخدر لا هلاك فيه إلا بعد مرور أعوام وأعوام، لا يوجد مصل واق منه لدينا، ولطالما تفشى- فلا خوف ولا قلق منه؛ سأدمنه، وسأعلم من بعدي إدمانه، فلا مصحات ستقي شره، ولا دواء سيشفي الجسد العليل منه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الهلوسة الثانية

ليس بالغريب على أمثالي الذين يقنعون بكل شيء؛ لأنه لم يوجد بجعبتهم، ويتمنونه كل يوم وهم على الوسادة، يطلقون العنان لأنفسهم لكل شيء مباح وغير مباح، سهل وصعب، حلال وحرام، الكل يُنَصِّب نفسه رقيبًا بالنهار على أفعال يستحلونها لأنفسهم بالمساء وهم على الوسائد، الفيروس يصيبهم بالظلام فقط، ويداعبهم تحت كل ضوء.

أما أمام الناس.. فهم قانعون، لا تشغلهم تفاهات، ولا تجرهم مغريات الحياة؛ فالمال آخر أمانيهم، والنساء آخر شهواتهم.
كذبة يكذبون بها على الناس، ويصدقونها في أحلامهم، ويظنون أنها قد تكون سببًا لإعجاب إحداهن.

كل من سبوها يوما لعهرها، هي الفارسة لأحلامهم، والبطلة لرواياتهم، وسندريلا لقصصهم الساذجة التي ينسجونها قبل النوم في هلاوسهم البسيطة، تكفي كبسولة هلوسة كل ليلة قبل النوم، وتلك كفيلة بأن تخدر كل آلام الواقع لليوم التالي.

فما الأحلام إلا هلاوس، وما العشق إلا الهلوسة الكبرى التي لا هلوسة بعدها سوى اليأس من أنه كان ضمن الهلاوس.

العشق هو القصة الأولى في كتاب ألف هلوسة وهلوسة، وما الحب إلا تلك الهلوسة التي نجعلها حقيقةً، والحقيقة التي هي الهلوسة بعينها.

هلاوس الوسادات بئر اغترف منه ما شئت بوسادتك؛ فلن يجف ولن ينضب، ولن تنفد وتنحسر هلاوسه طالما رأسك على الوسادة.

أول خروجي من صومعة قريتنا عندما حلم والدي بأن يجعلني ألتحق بأية كلية

عسكرية. . كان رجلًا بسيطًا، تطوع منذ حرب أكتوبر صبيًا بالجيش، وترقى حتى أصبح ملازم أول شرف.. عمل بكثير من الأماكن.. كان - رحمه الله - دراميًا في معتقداته.. يعيش حالة الحرب في جميع أوقاته، حتى وإن أسندت إليه أعمال كتابية بكتيبته.

ولا تمر ساعة من ساعات إجازته التي يخطفها ليرانا أنا وأخوتي، ثم يتوجه لزيارة قبر أمي - رحمها الله - هي الأخرى؛ لتفيض عندها دموعه، ويقول جملته المعتادة لها: اللهم تقبل ثواب قراءة الفاتحة على من أوسدتها الثرى بقلب راضٍ ونفس مطمئنة.. ثم زيارة شقيقتي الكبرى ببيت زوجها.

طقوس في محراب أسرتنا يقيمها؛ ليصل بها الرحم، ويحافظ على ترابطنا، وتنتهي الإجازة، ليرتدي بدلته العسكرية، ويشد قوامه أمام المرآة، وينظر إلى نفسه بعزة نفس، وينادي عليّ أو على من يمر بجواره ويقول: "إن فاتك الميري.. اتمرمغ في ترابه؛ يمكن يخليك راجل"، ثم يقص عليّ روايةً من روايات الحرب.

يسمعني ذات الشكوى في كل حديث عن الشباب والتغيير الذي اجتاح أفكارهم، والتسيب والانحراف الذي تَفَشَّى في نخاع الوطن، يخشى على الوطن أكثر من خشيته علينا، بل أحيانًا يخشى- علينا - بل منا - لخشيته على الوطن.

وكلما استدرجنا ليسمعنا ذات الشكوى؛ لا نجيب إلا بمقولة واحدة: "الزمن عايز كدة"؛ فيغضب ويجيبنا: "لا حرج على الزمن؛ فلا دخل له بما نؤمن وما نفعل، نحن نتمايل بأوطاننا كما تتمايل الراقصات، المهم أن نجعلها تتمايل بفن؛ حتى يستمتع جمهورها الذي أغدق أمواله من أجل أن تتمايل"!

فتبًا للجمهور، وتبًا لأمواله، وتبًا للجميع؛ فحينما نطلب آراء الراقصات في شئوننا ونترك المثقفين والعلماء؛ فلا ننتظر يومًا أن تستقيم بيوتنا ولا أن تستقيم نفوسنا، وكما نجعل الأوطان تتمايل؛ سيتمايل معها كل شيء، وسينحرف عن وضعه الطبيعي، وستتضارب الاتجاهات، وستتزايد الاهتزازات مع التصفيق الخَدَّاع؛ ففي الرقص والعهر لا مجال لخشوع الصلوات.

لا آبه بمعتقداته حينها؛ فلا يعنيني في ذاك الوقت سوى مراهقتي الخفية الخجولة ومتطلباتها.

وأراد الله لي أن ألتحق بكلية الشرطة، وحين قُبِلْت هَنَّأت البلدة كلها والدي، وامتلأ البيت بصناديق البيبسي- والكوكاكولا، وكأنني فزت بجائزة نوبل!

مساكين هؤلاء القرويون أمثالي؛ يحسنون الظن بالأشياء الخطأ، حتى بكليتي التي - إن استغنيت عما فقدته فيها من كرامة، وما تصبب من جبيني من عرق بطوابيرها من موانع ومشاة واشتباك وضاحية، وقيدتني به من حكم نفس على نفس وما خلفته في - اغتصبت وانتهكت حرمتها حينما انتهكوا عذرية الأطفال في قلبي، واستباحت أربع سنوات من شبابي، وتخرجت فيها، والتحقت بالعمل بالقاهرة، ووزعنا على الأقسام.

وانتشلتني أضواء المدينة، وسرقت عاداتي وأعرافي وقيمي، فما أحلى السرقات في عمري! فصرت لا أعرف في يومي سوى العمل، ثم البحث عن ركن بأحد المقاهي يلملم غربتي، أو أبحث في كل أنثى أراها وكأنها معشوقتي، ولا أقدم خطوةً واحدةً، بل أهرول بعد تضخم أحلامي كما تهرب الأبقار من الأسود...

فروتين الأيام يصيبني باليأس، وقلة راتبي تقيد بطني بألف حزام وحزام.. فكيف بأحلامي بسيارة أو زوجة أو شقة أو حتى بملبس.. بعيدًا عما كنت أبتاعه من الأسواق الشعبية.

أحلام وأحلام، ولكن رزقني الله بالرضا، والذي كان يجعلني أتلفت إلى من حولي لأشعر بما فيه من نعمة. . حقًا لم أكن فاضلًا، إنما كانت الفضيلة بداخلي تعبث بي؛ فلا تجعلني أسير خلف كل ضوء أحمر كأنه متعة، إنما هو بالنسبة لي إشارة مرور، ومن البداية تدور الدوائر.

وكلام والدي - رحمه الله - كان بمثابة مرآة أنظر إليها لآمن من خلفي، وأرى الماضي وما قطعت من طريق لأحدد واجهتي،

ورضيت بالأقدار حكمًا، فبنيت منزلًا بسيطًا، وتزوجت زواجًا بسيطًا، وعشت حياةً بسيطةً، لم أكن بسيطًا يومًا، إنما هو حارس الأوضاع الذي سلط سكين الكفاف على رقبتي؛ فأرغمني على الرضا، وعلمني أن من لا يملك لا يتمنى، ومن يتمنى لا يحقق، ومن يحقق فهو في الأصل يملك.

ولا أدري. . أكان رضاي قهرًا أم حكمًا؟ أم تماشيًا مع تلك الفترة؟ ولفترات أخرى مذاهب أخرى في حياتي، وكل مراحل حياتي مرت دون أن أدري.

حافلة عمري تسير وأنا - كأي راكب - أجلس على مقاعد أيامها. . فَتُقِلُّ أشخاصًا، وبحسب أرقام مقاعدهم يتحدد قربهم مني. . وتمر بمحطات لا أحسب لها بالًا.. وينزل بعضهم لتقل آخرين.. وأفتقد من عرفتهم وألفتهم في رحلتي؛ لينسيني فقدانهم هؤلاء الآخرين الذين جلسوا بأماكنهم وعلى مقاعدهم.. ولا يصاحبني من بداية الرحلة إلى نهايتها سوى قائد الحافلة، وهو القدر.. هو من يتحكم بأوقات وطقوس وركاب الرحلة.

المهم أنني أوصلتها إلى باب بيتها، وتلفتت مرتابةً، وألقت علينا نظرةً عابرةً بطرف عينها، وانصرفت، ولم يبق لي سوى تكبد المزيد من الخسائر وظلام الشوارع الذي أعاد في ظلام سجن قوات الأمن وما أحلم به من حرية.

محزن أن تعيش كل حلم في صومعة. . مُخْزٍ أن تهرول بحياتك من أجل أحلام تهرب من بين يديك كما يهرب الماء من بين أصابعك.

عدت أنا وصديقي رامي وكلانا يتحاكى عن فتيات وفتيات، وأنا أجاريه في الحديث ولا أملك من الأمر شيئًا سوى أن أضمن ما يقلني إلى وسادتي لأعيد أحلامي عليها، وأرتب حلقاتها وكأنني ما بحثت عنها إلا لأروي لوسادتي بعض الأحلام بعد أن سئمت الواقع مخيب الآمال ومؤنث الرجال.

هلمي أيتها الوسادة؛ لأقرأ عليك بعض تراتيل أحلامي الجديدة، وأعزف لكِ بعض أنغامي المبهجة، لكنها ليست كما الماضي.. آه لو جعل الله لكَ عينين؛ لأريتك ملهمة الأحلام ومنبع الآمال وناسجة الخيال.

آه أيتها الوسادة. . كم أعشقك! وكم أتمنى أن أضيف إلينا صديقًا ثالثًا؛ لأحيلك إلى التقاعد، ونجدد دمًا جديدًا!

أما رامي. . كنا قد جمعنا سجن قوات الأمن، ولم أعرفه مسبقًا؛ فقد جمعتنا قضبان نتوارى خلفها عما اتهمنا به وصدقه الناس، أحيانًا يكون السجن نعمةً، أحيانا يكون السجان حارسًا على أذنك فلا تسمع ما يقوله الناس عنك، وجدرانه واقيةً لرصاصات أعينهم الشامتة التي تلاحقك كما تلاحق أعين الرجال شيئًا تعرى من جسد امرأة.

تبتغي الحرية والفرار من بين قضبان السجون الحديدية وأنت تعلم أنك ستظل حبيس قضبان ظنون الناس.

السجن عالم لا يختلف عن عالمنا كثيراً، تنفذ فيه كل قوانين الطبيعة، البقاء للأقوى، والقوي سيد، والضعيف بهلول لا يملك من

أمره إلا التأمل والضحك، والكل يظن أنه مظلوم فيدعي أنه قد ظُلم من أي أحد، مِنْ الضابط الذي ألقى القبض عليه، مِنْ النيابة، مِنْ القاضي، فإن لم يجد مبررًا فمن السجان.

هو عالم لترويض أسود النفوس، ومعسكر لتقوية ضعاف الهمم، ومركز معتمد لصقل الخبرة لذوي الإجرام.

تعلمت فيه أنه مهما كانت الظروف سيئةً ومهما ساءت الأحوال فهناك سر خفي. . وهو أن صك السعادة لا يُمْنَح إلا لحامل ورقة اليانصيب المدون بها: "رضيت بما قُسِمَ لي".

الرضا هو العصا السحرية التي نشير بها إلى كل الأفعال والأشياء؛ فتضيء من جم سعادتها.

نتهافت صباحًا على مَنْ منّا يحمل قاذورات العنبر التي خلفناها ليخرج ويلقيها في صندوق القمامة، خطوات تبعد بين باب السجن والصندوق، بضع خطوات هي بمثابة قرص مخدر ينهي كل خنجر يأس بين أضلعنا، ويحرر كل أمل حبيس فينا، خطوات أشعة الشمس فيها تصيبنا بالدوار وتخدر كل آلام الظلام.

أشعة الشمس التي كنا نتوارى عنها بظلام المكاتب وستائرها، وظلال السيارات وزجاجها الملون، ونظاراتنا الشمسية القاتمة، والآن.. نتهافت عليها للحظات.

بضع ثوان نستنشق معها نسيم الحرية وعبق الحياة؛ فتتحول معه رائحة مهملاتنا وقاذوراتنا التي خلفناها في الظلام الذي انتهجناه

قبل دخولنا السجن إلى عطر ذكي يوقظ كل ما ألفناه يومًا ولم نشعر به.

خطوات بسيطة، وحاجز ما بين حياة وحياة، جدار ما بين الظلام والنور، سلك شائك ما بين السجن والحرية.

رائحة الكتب التي أقرأها تذكرني بطفولتي، ونسيم الصباح وأشعة الشمس تذكرني بشبابي، وظلام السجن ينبهني لرجولتي التي انتهكت حينما ساد الظلام، ينبهني لأيام عمري التي انسابت من بين أصابع القدر لألحظها كعقارب ساعة لا جديد فيها سوى أنها تمر بذات الخطوط والعلامات كل ساعة في كل يوم أربعًا وعشرين مرةً.

وأنا على وسادتي في منتصف تلك العقارب أديرها وأدفعها بكل أمل حبيس دفين في، أما قلبي.. فليس به سوى دقات تدل على أنني جسد، وأنني لا زلت على قيد الحياة.

هل ذلك يحتاج ثورةً؟ وعلام أثور وأنا لا أملك سواك أيتها الوسادة في ذاك المكان الذي يسوقك إليه سرداب النساء.. الذي يقودك للهلاك.. سواء سرت فيه أم لا؟ فكل مرحلة لها أشباحها التي تطاردك، أنا ثالثهم، أما هم.. فليروا هم دوائرهم، تكفيني دائرتي لأظل حبيسها.

الهلوسة الثالثة

هناك في ركن العنبر بذات السجن كانت جلسة تعارفنا على دائرة كل منا، نفترش الأرض على ضوء خافت يتسلل من بين حنايا النافذة، مطل علينا من أعمدة الإنارة التي كاد يحجبها دخان سجائرنا وهو يتراقص على أضوائنا الخافتة.

كلاهما روى روايته، وكيف ساقته أقداره إلى هنا.. إلى سجن الجسد، أما الروح. . فلم تكن حبيسة الجدران يومًا.. هي طليقة تحلق كل ليلة بعيدًا، تداعب كل أحلام السماء، وتطاردها كل كوابيس الأرض.

تنهد سمير وحكى قائلًا:

هلاك كل امرئ عند الوسادة يا عزيزي، فقد كنت أعمل أمين شرطة بلوكامين مباحث، سرت خلف الطموح كما سار الجميع، وضعت خطاي على أثر أقدام أقاربي الضباط العاملين بوزارة الداخلية، أنهيت معهد أمناء الشرطة، وتزوجت مبكرًا على خطى أقاربي أيضًا.

ويا لها من حياة يعم عليها الاستقرار، وتنهال عليها سكينة الزوجية، وتتوج بتاج الأبوة، وتنصع بجواهر الأطفال، ولكنها دائرة كما اتفقنا.. نقطة البداية هي نقطة النهاية وسبب لها؛ فلولا البدايات ما كان هناك نهايات.

غيرة زوجتي من رؤية أقاربي الضباط وهم يتقلدون المناصب ويحيطهم الناس بالاحترام والتقرب والود الاجتماعي.

ساقتها غيرتها لتضع بأحلامها نقطة البداية وهي لا تعلم قانون الدوائر، لتنبت حلمًا كان في أن أحصل على ليسانس الحقوق لأصبح ضابطًا؛ فأكون ذخرًا لجواهري الصغار.

كان يكفيني راتبي.. قانعًا به.. ولم أستجب لشياطين الإنس من حولي؛ فأستحل أموال الناس الذين قد تسوقني طبائعهم لذلك، وجربت ذاك الطريق، فكنت كلما استجبت لوساوس الشيطان عدت لمنزلي على وعكة صحية لأحد من أفراد أسرتي؛ فأنفق أضعافها في علاجهم.

كانت هناك ابنتي الصغيرة رغدة.. تدفعني مع والدتها إلى أن أحلم بأن أكون ضابطًا، فتسألني: بابا.. هو أنت ضابط؟؟

أجيبها: لا، أنا بعده على طول.

فتقول: عسكري يعني؟

أرد بعصبية: لا، أنا أعلى منه.

وحوار طويل تنهيه بسؤال بسيط: إمتى هتبقى ضابط يعني؟

حاولت أن أحقق أحلامهم؛ فقد يئست من أحلامي التي لا تتحقق، وقد كان.. وأنفقت معظم راتبي على الدراسة؛ حتى حصلت على ليسانس الحقوق، وسعيت واجتهدت؛ حتى التحقت

بأكاديمية الشرطة، وتخرجت فيها ضابطًا، والتحقت بالعمل بإحدى أقسام الشرطة، ثم رئيسًا لنقطة تابعة له في زمن تفشى فيه السرقة بعد الثورة، واستطعت الإيقاع بأكبر تشكيل عصابي لسرقة السيارات بالمديرية.

قاطعه صديقنا ضاحكًا: خلاص يا عم، عارفين إنك محصلتش، وإنك رجل المستحيل، ما كلنا كنا أبطال، وآدي آخرتها.

لم يجب؛ فقد كان يروي وهو متصلب وعيناه ثابتتان، وكأن شريط الزمان يترجم أمام عدسة إيلام الفاجعة، واستأنف قائلًا:

كل ما هنالك أنني كلما صحوت، وودعت زوجتي وأبنائي ذاهبًا لعملي. . لمعت أعينهم فرحًا بالنجوم على كتفي، وأرى ذلك في كل عمل كلفت به أو رأيت أنه من واجبي القيام به.

وكل حكايتي أنها أنثى استطاعت أن تجرني إليها؛ فلدي أحلام وأحلام، وأمام ألفة الوجوه، ولسعة الصقيع، وخدمة ليلية بإحدى الأكمنة ظهرت هي قادمة بسيارتها، فبطلتها الأولى كسرت واخترقت جميع الأكمنة الصانعة كردونًا أمنيًا حول قلبي.

وسألتها عن رخصة سيارتها، وأنا لا آبه حينها؛ فلا حاجة إلى سحب رخصها؛ فقد سحبت هي فتيل قنبلة الحب الموقوتة؛ فتفجرت في صدري، وتبادلنا أطراف الحديث، أنا المتهم بالإعجاب، ولا إنكار سيعفيني، ولا منجى أمام جهاز كشف الكذب بعينيها؛ فأعصابي مرتعشة، وأنفاسي مقبوضة.

لم تستطع أجفاني أن تعانق الوسادة حتى صباح اليوم التالي؛ فالارتباك أنساني أن أنقش بذاكرتي بيانات الرخصة، واستعلمت عن أرقام السيارة في اليوم التالي، وتتبعتها، وعلمت أنها تعمل بالخارج، وتأتي من حين لآخر لتطمئن على والدها طريح الفراش.

وبدأت أنصب شباكي حولها، ولا أعلم أنها هي من تنصب شباكها حول عنقي، أقنعتني أنها الفريسة وأنا الصائد، والحقيقة أنني كنت الفريسة الكسحاء.

"إيييه.. أنا عبيط فعلًا".

اخترعت ألف طريقة وطريقة لألقاها، وهي تعلم، وكلما أبصرتني تبسمت دون أن تنظر، لَمّحت دون أن تبوح، وأنا كالفريسة ألهث خلف مروضي وصائدي.

أيام وأيام وأنا أتوسد صورتها، ويعطر عبقها غرفتي الصغيرة، وأتجمل كلما نظرت لمرآتي خوفًا من أن ألقاها، وتبدلت سلوكياتي؛ فكنت أظنها تنظر إليّ في كل أحوالي وأفعالي، حلمت وحلمت؛ حتى تحول حلمها إلى واقع يعيش بداخلي.

أظنه كان عشقًا؛ فالعشق كسكرات الموت.. لا يذوق مرارته إلا الميت الذي لا يعرف كيف ينذرنا منه.

غابت.. وعلمت أنها عادت للخارج، وتوسدت صورتها قرابة العام؛ حتى اعتدت أن ألقاها باليقظة التي تسبق نومي، فأفعل معها ما أريد؛ فلا سلطان على رأسي وهي على الوسادة.

وبإحدى أيام عملي.. شممت نسيم عبقها الذي ما غاب عن أنفي يومًا وأنا متكئ على مكتبي، وأبصرتها.. وتلعثمت أفكاري؛ فنسيت كل ترتيباتي المراهقة التي كانت بأحلامي البائسة في غيابها.

تداعب الأرض أقدامها، وتخطو بهدوء، ويتكئ على ذراعها كهل، وهي تصعد معه سلم النقطة المواجه للنوباتجية، والذي تحول إلى سلم موسيقي من عزف أقدامها عليه.. قرع حذائها عليه يداعب دقات قلبي معه، وألقت السلام علينا...

أنا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

هي: لو سمحت يا فندم.. أنا والدي بيته اتسرق من حوالي شهر كدة.. ينفع نعمل محضر ولا خلاص كدة.

أنا: لا. . ينفع طبعًا، بس هو إيه اللي اتسرق بالظبط؟

قاطعنا والدها: أنا يا باشا قاعد لوحدي، وكنت عاين فلوس في البيت عندي وبصرف منها على قد ما بعوز، ومن حوالي شهر كدة لقيتهم اختفوا، ودورت عليهم ملقتهمش، وافتكرت إن أنا عاينهم في مكان وناسيه، لحد لما بنتي جت وقلبنا عليهم البيت مش لاقينهم.

وسطرت المحضر دون لمحة من عيني؛ فأنا لا زلت متهمًا، واسترسلا في الأسئلة وأنا أجيب، وعيناي في الأوراق؛ خشية أن يفتضح أمري.. هل الشوق شيء محرم؟ أم أن الحب أصبح جريمةً؟ ولماذا لا نملك الشجاعة لنبوح بأسرارنا؟

ولم لا نتهور لبضع دقائق يفتضح فيها أمرنا ثم نعود لوقارنا وكياستنا وأحلامنا المحبوسة بفانوس نفوسنا السحري؟

الندم موجود في كل حياتنا، فلماذا نخشاه حينما تكون أنفسنا على استعداد لتقبله؟ لماذا نغلف به كل أفعالنا ونخشاه في الحب؟

وانصرفا، وتجدد عبقها بأنفي، ونطقت ألسنة من حولي عنها؛ فقد داعب جمالها أعينهم الخائنة، الغيرة في صدري، والحمية في جبيني الذي تقطر عرقًا من هول حضرتها، حتى همس لي شيطانهم الأكبر - كما أسميته - بأنه لا بد من إجراء معاينة للمنزل، وقد كان.

كل ما هنالك أنني تصنعت عدم مبالاتي بها وانشغالي بهاتفي، لكنه عرض مغرٍ.. فرصة، وما أندر الفرص في الحب!

واتخذتها ذريعةً لأبصرها وألقاها، فلا أمر من لوعة الشوق، ولا أقسى من لهفة العشق، ولا أوسع من جعبة الأحلام في صدري.

وتوجهت إلى منزلهم، ورافقني أحد أفراد النقطة، واستقبلتنا وكأنها تعلم قدومنا، وأجرينا معاينةً، فلا كسر ولا شيء ينم عن سرقة، وحصلت على رقم هاتفها حينما سألتني كيف ستعرف أننا توصلنا للسارق، وأخبرتها أننا سنعلمها، وأعطيتها رقم هاتفي لتخبرني بأي شكوك لديها، وانصرفت.

وفي المساء اتصلت بي بادئةً حديثها عن المحضر، ثم استدرجتني في الحديث بأن ذكرتني بأنني كنت قد أوقفتها بأحد الأكمنة وسألتها عن رخصة سيارتها، ومنذ ذاك الحين وهي تتذكرني وتعرفني، كنت

أسمع كلماتها وكانها أول مرة يدق أذني صوت أنثى، كل كلمة أرقبها ولها إيقاع على أوتار قلبي.

وحدثتني عن نفسها، وما هي إلا بضعة أيام حتى صارت صداقة بيننا واعتياد على الحديث سويًا كل مساء، ونُزِع رداء الحرج بيننا، وكنت ألقاها كلما واتتني الفرصة لذلك.

واعتدت عليها؛ فالاعتياد يسوقنا للأشياء لتتملكنا وتعبث بنا وتعدو بعيدًا عنا؛ لنعدو ونهرول خلفها.

تطورت العلاقة بيننا؛ حتى اعتدت أن ألقاها في أحلامي كل صباح، وفي واقعي كل مساء؛ فالعشق ينبت باكرًا، والشوق يثمر في المساء.

حتى فاجأتني يومًا بقولها: أظن أنني تعلقت بك وبأفعالك، ولم يبهرني يومًا رجل غيرك، سامحني إن فعلت معك ما اعتدت أن أفعله مع من كانوا قبلك ولم تنجح علاقتي معهم.. سنتباعد بعض الوقت؛ لأترك انبهاري وتعلقي بك؛ لأعرف حقيقة مشاعري تجاهك.

عزيزي.. غب عن جوارحي ثلاثة أيام فقط، فإن لم أبحث عنك؛ فإنك لم تكن حبيبي يومًا.

وودعتها قرابة منتصف الليل وأنا أتبسم وأتعجب، أنظر ألف مرة في هاتفي، أقرأ بعض رسائلها ولا جدوى.. أتفقدها في كل مكان جلست به أو مرت عليه أو حدثتني عنه يومًا. وعادت إليّ الهلاوس من جديد. . أتخيلها تحادثني وتتوسل إليّ أن أنقذها من الشوق

الذي أنهك كبرياءها وغَيّر معتقداتها وألهمها الصبر حتى حدثتني، هلاوس. . حتى أتتني رسالة في اليوم الثالث منها، حملها إليّ أحد صبية القرية، تقول فيها:

عزيزي...

لقد ودعتك ولم أكن أعلم أن هناك آهات كالخناجر مغموسة بسموم القدر تغرس في صدورنا بعد كل وداع، مخطئ من يظن الصمت أفضل من الكلام دومًا، فلا مكان له مع من أحببت؛ فسيسوقك الصمت إلى أن تجلد نفسك كل مرة تتذكر فيها أنك لم تقل أحبك حين أتتك الفرصة لذلك.
ولأن الحياة ما هي إلا فرص نغتنمها فتنقذنا وتحيينا، أو تفوتنا فتقتلنا وتردينا.

ولأنني أحبك..
كن لي وحدي، أحببني ولو نفاقًا، وأنا كالمجنونة سأصدق؛ لأنني افتقدت الحب بكل أنواعه في هذه الدنيا.. الغابة الكبرى التي نعيش فيها، وفي الغابات لا تخشى الذئاب إلا كل ضوء أضاء.. فكن الضوء لي في تلك الغابة الكبرى.. أرهب بك كل ذئب استحل لحمي، واستباح عراي، وأعدك بأنني في كل يوم سأقيم حربًا معك؛ لأنني أحبك. . وسأقاتل كل كلمات اللغة حينما تكون حزينًا لأواسيك، وسأطعن حرس الروتين والملل بخنجر التمرد لأجعلك سعيدًا، كل يوم ستدق طبول الحرب بيننا، وسنرى من سيظفر

بالآخر ويجعله أسيراً مكبلًا بقيود العشق.. مطاطئ الرأس لهزيمة الحنين في موقعة الشوق.

وليكن الفراش أرضًا محايدةً بيننا، ولتبدأ الحرب ونحن عزل حتى من ملابسنا التي قد تحجب سهام القبلات التي ستحجب هي الأخرى الضوء في سماء غرفتنا الصغيرة.

لأني أحببتك...
أنتظرك وأنا أتوسد جمر الشوق إليك.. وأتمدد على أشواك لوعة الهجران.

قفز صديقنا ليقاطعه مرةً أخرى قائلا:
وروحت ولا عملت فيها ابن ناس ومحترم.

أطفأ سيجارته التي نفدت بيده دون أن يشعر وقال:
ذهبت.. وذهبت.. وذهبت..... حتى صار ما بيننا أدعى للعشق والشغف؛ فقد نسيت كل ما شيدته يومًا من منزل وأسرة وزوجة ومكانة اجتماعية.

انسقت خلف شهواتي، وآمنت بوهم الحب في صدري؛ فنقطة ضعفنا هو الخوف من فقدان ما تعلقنا به وأنفقنا عليه أيامنا؛ لنصنع منه سندًا نتكئ عليه كلما طاردنا شبح الوحدة وهاجمتنا وحوش الرغبة.

وفي إحدى الأيام. . لَمّحَت لي بالزواج، بعد أن أقنعتني أن هناك أشخاصًا يطاردونها ويطلبونها للزواج، وأن والدها - وهي تشفق عليه - حلمه أن يراها متزوجةً.

هي تعلم أنني متزوج، ولكنها استطاعت ببضع كلمات أن تقتل كل مخاوفي.. بعد أن تنهدت طويلًا ثم قالت:

لقد قرأت أكثر مما ينبغي من الروايات والقصص وحكايات الحب، كنت أبحث عنه ولا أعلم أن جميعها لا تفي بالشعور حين يأتيك ويتملكك، كنت أحلم بتلك اللحظة التي أتلفظ فيها بكلمة: "أحبك".. حلم تمنيت أن يتحقق، لكنني اكتشفت أن كل تلك الروايات والحكايات والقصص لن تفي بما في قلبي، ولن تناهض ما وصلت إليه بفلسفة الشوق في قلبي البسيط.

أحبك لا تعني بالضرورة أنك لي.. إنما تتملكنا، لنقل حينها أنا "لك"؛ فافعل ما شئت بي وبأحلامي وبأشيائي التي ما عرفتها إلا من أجلك.

"أحبك" هي الراية البيضاء التي نرفعها وتسلم بكل أوامر محبوبك وتنصاع إليها، هي الكلمة التي تجندنا في جيوشه؛ فنصبح جواسيس على أنفسنا له؛ فنفضح كل الوساوس بصدورنا لنتعرى أمامه، ولم يعد هناك سر يخفى ولا خبر يذاع.

وتزوجتها بعقد عرفي، واحتفظت به معها وأنا لا آبه؛ فليس لديّ ما أخشاه من زوجتي ما دامت سلمت لي نفسها.

في ذلك اليوم طلبت أن نحتفل كزوجين، وأقمنا حربًا أخرى في ذات ساحة المعركة التي ما إن تقاطرت فيها دماء الرذيلة حتى صارت أشباحنا تتصارع كل يوم دون أبواق تحذيرية ولا مقدمات.

وقبل أن نخلد للنوم طلبت مني أن أحرر لها محضرًا بفقدها لبطاقاتها الائتمانية، وأخبرتني أنها منهكة لا تقوى على الذهاب؛ فأمامها ساعات قليلة وستقلها طائرة بعيدًا عن حروبنا الصغيرة لتبدأ الحرب الكبرى بالاشتياق في صدري.

شيء بسيط. . أن أحرر محضرًا من أجل زوجتي وحبيبتي، وأن أوقع بدلًا منها؛ فلا مكان للخيانة بيننا، وحررت المحضر، وأحضرت لها صو رةً رسميةً منه، وأوصلتها إلى المطار، وقبل الرحيل.. أعطتني بطاقةً ائتمانيةً لم تفقدها لتجري تحويلات مالية عليها لي؛ لأبتاع لها أحد العقارات.

وتزايدت تلك التحويلات، وتزايد سحبي للمبالغ على فترات، وأنا أعطي النقود لوالدها كطلبها قرابة العام، حتى جاءني طلب حضور من النيابة، وذهبت ولا آبه؛ فقد يكون شيئًا مرتبطًا بالعمل.

فوجئت بأنها تقدمت بشكوى تدعي أنها حررت محضرًا بالنقطة التي أعمل بها، وأنها تتهمني بأنني قد زورت ووقعت بدلًا منها، واستبدلت بالمحضر آخر لكوني قد اختلست بطاقتها الائتمانية، وأنني أعرف الرقم السري لحكم علاقة سابقة بيننا.

كاميرات ماكينات السحب دليل على ما قالت، وتقرير أبحاث التزييف والتزوير دليل على توقيعي بدلًا منها، وكل ما قالته في نظر الكافة يقين.

الصدمة أنها كانت أخت أحد أفراد التشكيل العصابي وأرادت الانتقام له، وببلاهتي وجدت نفسي- خلف قضبان السجون، وفقدت كل ما حلمت به يومًا وكل من حلم بي أيامًا.

وكانت تلك قصة أولنا.....

الهلوسة الرابعة

مرت الأيام في عملي بالمحاماة التي تلقفتني يدها بعد أن لفظتني وزارة الداخلية، أفتش عن التميز فيها؛ فقد التحقت بمكتب محامٍ بالنقض مشهور.

وبقيت سمعتي ملطخةً بألف سؤال وسؤال عند من يعرف أنني كنت ضابط شرطة؛ فيظن فيّ السوء ولا ألومه؛ فقد فعلها أصدقائي وزملائي من قبلهم.

مرت الأيام في تشابه غريب كتشابه الوجوه التي أفتش في ملامح كل منها عن وجهها، واختلطت الأصوات في كل زحام، وكأن صوتها واحد منهم، حتى اتصل بي صديقي حسن، وطلب مني أن أتفرغ للذهاب لمعرض الكتاب، وكانت هوايتي؛ فتوجهنا وأنا لا أعلم ما يخبئ القدر لي هناك وما خطط له صديقي....

ظللت أتصفح الكتب لأحدد أهداف شرائي أي كتاب، ومناسبة ذلك بقايا النقود التي في جيبي.. مؤلم أن يهب أهلنا حياتهم من أجل أن نتعلم القراءة والكتابة لتصبح عارًا عليك، ولا بد أن تدفع ثمنًا

لقراءتك، وأن تعجز يدك عن الكتابة أفضل من أن تبتر ممن علموك في مدارسهم... فيا ليتني كنت جاهلًا...

وأبصرتها بجواري تتحدث مع صديقي؛ فكلا منهما على معرفة مسبقة بالآخر وأنا لا أدري.. يتبعها بسيارته حتى يوصلها لباب بيتها ولا يخبرني، ولا أعلم ولم أسأل؛ فزحام المدينة وكثرة الوجوه جعلني أستبعد كل ظن أن يعرف أحد أحدًا.. تسمرت وأنا لا أدري ماذا أفعل، وتَحَكَّم فيّ سلوك القروي الخجول؛ فنظرت إلى الأرض وإلى الكتب وإلى المارة أبعد عينيّ بالقوة عنها.. أكرهها على العبث بجميع الوجوه إلا وجهها الذي هو غايتي ومقصدي، حتى انتزعني صوت صديقي من ارتباكي إلى مواجهتي بضعفي وانطوائيتي، ودار الحديث بيننا....

حسن: إنت يا عم.. سلم...

أنا: تلفت بارتباك غريب كادت معه ضربات قلبي يسمعها الناس من حولي، وتبسمت ابتسامةً لن تخفي أنفاسي التي تسارعت، وقلت: أهلًا وسهلًا.

حسن: دة مصطفى.. صاحبي.. محامي.. ودي سما.. كانت زميلتي في الجامعة.

أنا: أهلًا وسهلًا.

هي: بيتهيأ لي إحنا اتقابلنا قبل كدة.. صح؟

أنا: مش واخد بالي والله.
حسن: لا.. متشغليش بالك.. أصل مصطفى عايش في عالم تاني.
هي: إزاي يعني؟!
حسن: أصل هو من كفر الشيخ، ولسة بيتدرب في مكتب محامي هنا جديد.

نظرت إليّ نظرةً وكأنها تعرفني من ألف عام.. كنت أتمني أن أمتلك جرأتها وتخطيها حدود الخجل؛ لأخبرها بكل ما أخبرت الوسادة به يومًا، ثم قالت: في حد معاكوا تاني ولا لوحدكوا؟

حسن: لا لوحدنا.. إيه.. هنتوه؟ وأنت مين معاكي؟

هي: مفيش حد.. أنا قلت أعدي قبل ما أروح لصحابي.

وأثناء الحديث.. ساقتهما خطواتهما للترجل بالمعرض، وأنا لا أملك قَدَمَيّ حين تبعتهما، محاولين استقطابي في الحديث معهما، وأنا أتصبب عرقًا من الخجل الذي انتابني لأتطفل عليهما؛ فليست من شيمتي، وفهما هما ذلك.

تمكنا من استقطابي، وما أروعه من استقطاب! لا ينقصه إلا أن يختفي حسن.. لأخرج طاقاتي المكبوتة، ولأبسط أحلامي على أرض الواقع، وأزين بكلماتي رداء أنوثتها وجرأتها.

ظللنا كذلك حتى انصرفت، ودعتنا للتقابل في المساء إن أردنا ذلك.. عايرني حسن بتلعثمي وخجلي، وأثقلني بجميل هو فاعله أنه أحضرها وأخبرها بكل ما كان وكل ما قلته عنها.. فيا للمصائب التي تحل جملةً.. فيا ليته ما أخبرني؛ فأنا أعلم أنه سيزداد حيائي، وأنا أعلم أنها تعلم ما كنا قد فعلناه.....

ولاحاجة لي بالحرج حينها.. ففي المساء سوف تحل بركات القدر، وتتساقط خطايا الزمن، وتتوهج مصابيح الأمل.. ستدق طبول السعادة لرؤيتي لها مرتين في يوم واحد.

في المساء عندهم هو بعد منتصف الليل.. أما عند القرويين أمثالي هو بعد العصر، ولا حاجة لنا بالساعات؛ فما هي إلا تذكرة بالصلوات.. وتقابلنا وهناك صديقاتها وأصدقائها.. هناك رجال غيري على طاولة تجمعنا سويًا، واحتسينا ما طلبناه وأنا أفكر ماذا أملك لكي أقدمه لها؛ لتفضلني عمن أحاطوا بها، وكيف أقبل بعشق امرأة تصرفاتها كنت أصفها بالأمس بالعهر؟!

وإن قبلت.. كيف لي باختلاق حوار بيننا وأنا لا علاقة لي بها؟

لا حاجة لي بالحاضرين؛ فمن تهمني هي التي استغلت انصراف من بجواري لتزداد في جرأتها لتجلس بجواري.. واغتنمت الفرصة، ودار الحديث بيننا:

أنا: هل تهتمين بالقراءة؟

هي: بل الـ قراءة هي من تهتم بنا وترعانا؛ لتصنع من كل منا بطلًا لرواية قد تكون قرأتها يومًا أو سيقرؤها غيرك يومًا ما، ولك ما فعلته بنا القراءة وما تركته بعقولنا ورسخته، وما ألقته من خيالات أخلاقية وفضائل كاملة وتحدثت عنها بضمير الغائب، هي من نسجت ألياف عقولنا وذاكرتنا.. ولا أعرف. . أأذكر فضلها عليّ؟ أم ألاحقها بالذم على ما فعلته بي وما رأيته على شطآن بحورها؟

واتخذت ذلك الموضوع مجالًا لأجعلها تتكلم؛ فقد استرسلت في إجابتها، وتنهدت وكأنها أرادت أن تخبرني أنها تنتظرني طويلًا لتخبرني بما لم تخبر به أحدًا.. تنتظرني لتتحدث عن نفسها وليس عما قرأت، وتجرأت.. وداعبتها ممازحًا:

إذن اهجري كتبك، واكتفي بما قرأتِ، وانظري للعالم وللأشياء كما تمليه علينا الصحف والقنوات الفضائية... وسلمي زمام عقلك لمن يدفع أكثر، لمن يمول أكثر ذلك الإعلام، أو تصفحي كل صباح الصحف ومحطات التلفاز الرسمية، وانظري للدولة من مفهوم المواطنة.

يا سيدتي.. اهجريها واخلقي أسبابك لهجرانها.. فكل كتاب من الكتب الموجودة أمامك هو رؤية خاصة لمؤلفها، ولا دخل لنا بالرؤى، وما لنا وتجارب الآخرين، فما يقص علينا وما نتصفحه لا نتأكد من مصداقيته.

فما الذي يجعلنا نسلم أعناقنا لآخرين يوهموننا بأنهم سيضعون عقودًا عليها؛ فنفاجأ بحبال أفكارهم تطوق أعناقنا حتى تقتل أنفاس الحياة فينا، ونحارب من أجل أفكار آخرين ما حاربوا من أجلها، بل هم كالمرتزقة جنوا مكاسب أعمالهم وحصدوا تهليل أمثالنا لهم.....

فاجأتها بكلامي؛ فحاولت أن تدافع عن رأيها وهوايتها القراءة، والحقيقة أنها ما حاولت إلا الدفاع عما أهدرته من عمر في القراءة، هكذا رأيت في عينيها، فقالت محاولةً حبس أنفاسها:
أتدري أن كل كتاب هو كالزورق الذي صنعه كل كاتب وأفنى فيه أمواله وعمره، ثم أبحر به في بحر الحياة وجَدَّف بذراعي العلم والتأمل وألقى بشباك ملكة الأدب؛ فأخرج بالشباك حظه من الرحلة؟؟ فإن كان محظوظًا أخرج دررًا ولآلئ.. وإن جانبه الحظ أخرج بعض أحجار ورواسب ولا لوم عليه...

قلت: أعرف أنه لا لوم عليه، ولكن هناك بعض اللوم على بعض من أبحروا بزوارق صنعتها سياسات حكومات وأفكار جماعات ووضعت بشباكهم ما أرادوا، ولا مجال للصدفة والحظ فيه.
قالت: وما حاجتهم إليه إن كانوا هم من وضعوا بشباك فكره ما أرادوا؟

قلت: هم لم يغيروا في فكره شيئًا.. إنما وضعوا بشباكه ما أرادوا فقط، وحاجتهم إليه لا تختلف كثيراً عن حاجتنا للكوب وعسله حين نضع السم فيه...

قالت: نختلف كثيرًا؛ فأنت لا تهوى القراءة ولا تدرك قيمتها.

قلت: لا، قد أحب القراءة أكثر منك، ولكننا نختلف في الغاية.. أنتِ تقرئين لتتعلمي من تجارب الآخرين؛ لخشيتك أن تجربي بنفسك ما أقدموا عليه.. كمن يصفق للفائز دون محاولة أن يكون مثله، أو قد تستهويكي القراءة لمجرد إثقال فكرك وتأييد رأيك في الشيوعية التي أنتِ عليها.....

صحيح أن هناك من رسموا ملامح جعبتهم الزمنية بالكتابة، فدونوا كل تفصيلة بمداد أقلامهم، سواء أكانت مزخرفةً بدعم يد السلطة لها، أم مكسورةً لنبذهم إياها.. وكل منهم له وجهة نظره، وحتى نظرته مستنبطة من داخله.. من ميوله.. من أهوائه.. من تجاربه الشخصية، فكم كذب التاريخ علينا! وكم هُدِّمَت بِيَعٌ وصوامع وصلوات من كذب بعضهم!

الحقيقة أن الكاتب هو موهوب يستطيع الرسم بالكلمات.. ينقش لوحةً ألوانها أهواؤه، وسحرها موهبته، وقوته في عشاقها.. ولن أمد كاتبًا من قوتي بأشياء لا أؤمن بها. . اقرأي أنتِ ما شئت، أما أنا.. فقراءتي لتتعرى مزيد من الحقائق أمامي.. ليفتضح كل فعل ودوافعه، ولا دخل لي بالتعلم؛ فتجربة واحدة في ذلك العالم

كفيلة أن تخلق من الإنسان فيلسوفًا؛ فيدرك ما لا يدركه غيره، وفي الفلسفة.. لا مكان للنظريات، ولا مجال لتجارب الآخرين.

اقرأي أو انتظري تجربةً واحدةً فقط.. تجربة كفيلة بأن تجعلكي تكتبين مائة كتاب بنظرة فلسفية، ولن يتقبلها أحد.. أتدرين لماذا؟؟ لأن غالب القراء كمن يسبح في الماء طالما قدماه ثابتتان على الأرض، وإن شعر بابتعادهما عنها - ولو لشبر واحد - قد يموت غريقًا من الخوف والقلق.....

أحاديث وأحاديث، وجدال لا نبتغي منه سوى أن يحتضن كل منا أفكاره التي اتخذها سيفًا مسلطًا يهشم به جدار الماضي ويغرسه في فريسة الحاضر، ويرتكن إليه بحذر من المستقبل، وما احتجنا إلا إلى احتضان بعضنا.. أن تتلاقى أعناقنا وتتلاحم أذرعنا....

أن نلتقي بعد أن يلقى كل منا الآخر أعزل متخليًا عن تلك السيوف ودروع الخوف من العادات والتقاليد والأعراف، وبعيدا عن ألسن الناس التي هي كالمجانيق بين أفواههم فلا تلقي إلا نيرانًا وأحجارًا..

حرب نبتغي أن تقام بيننا على أرض محايدة بعيدًا عن الأسلحة، لنكتفي بالخداع والمكر وهي الأقوى.

أما أنا.. فلا أملك إلا الاستسلام؛ فقد ألقيت كل أسلحتي؛ لألقاها أعزل؛ فلم أعد أحكم السيطرة على حراس قلبي، ولم يعد هناك اتصال بيني وبين كتائب الجسد التي تترقب تلقف فريسته حتى تبدأ في توزيع الغنائم؛ فجسدها ما هو إلا غنائم حرب، سأخسر فيها كل شيء.. حتى الوسادة.

الهلوسة الخامسة

وفي وسط جدالنا. . قاطعنا حسن قائلًا:

ابيه.. سرحت منك يا ابن القاتل، مش كفاية كدة.. ورانا شغل الصبح، ولا زي عادتك هتدخل تقول للقاضي معلش.. ظروف الطريق.. أصل أنا جاي من كفر الشيخ، ياللا يا ابن القاتل.. خلينا نمشي.

ثم ضحك ضحكةً خبيثةً، وبعينيه يذكرني بعبدالفتاح.. ثالثنا؛ فقد كانت مقولته حينما حكى روايته قائلًا:

كان جدي - رحمه الله - كَ هلًا خفيف الظل، لا ينادي على أحد إلا بقوله: "تعالى يا ابن القاتل.. روح يا ابن القاتل".. منذ نعومة أظافري وأنا أسمعها منه، ويسمعها الناس ولا نبالي، ولم نعلم عنها شيئًا سوى أننا اعتدنا عليها وأحببناها منه.

كان رجلًا فقيراً جدًا، إلا أنه دأب على قراءة الجرائد كل صباح، وينفق عليها كل أمواله، وحينما شددت ظهري وكبرت سألته عنها، قال:

يا ولدي كلنا قتلة، إن لم نقتل أجسادًا نقتل أرواح الآخرين، وإن لم نفعل نقتل أنفسنا، فنحبس كل أمل وكل حلم فينا، ونذبحه بسكين العادات والتقاليد والقيل والقال.

كل الكلام الطيب والخصال الطيبة عندنا موءودة ومقتولة.. ولا حرج؛ فقد أنجب أبو الناس سيدنا آدم ولدين قُتِلَ الذي قَدَّم قربانًا طيبًا، وعاش قاتله ونحن سلالته.. فلا حرج.

جدك الأكبر قاتل، أما المقتول.. فلا حاجة له بالعيش عليها، الأصل فينا.. القتل إلا ما استثناه الله واجتباه وهداه.. فكن على حذر من القتلة أولاد أبيك الأكبر، سامحني الله يا ولدي على كلامي، ولكنها الحقيقة.

قاطعته بقولي: يا عم احك.. ما لنا إحنا ومال جدك، ومال جدك بحكايتك.

قال: حكايتي أبسط من أن تحكى؛ فقد كانت حياتي عصيبةً بالنسبة لي قبل العمل؛ فوفاة والدي وأنا صغير، وأمي طريحة فراش المرض لم يشفعا لي عند إخوتي الكبار؛ فكنت أصغرهم.. كما يقولون (آخر العنقود).

أعيش وحدي.. أحلم بتجمعنا كباقي الإخوة، ولا يوجد طريق إلا وسلكته لتحقيق ذلك الحلم الصغير؛ فقد تحكم في إخوتي الجفاء، وغشيتهم المادية؛ فلهثوا خلفها ولم أبالي.

لا سبيل أمامي سوى أن أتحمل كل استغنائهم عني بتوددي إليهم، وأن أستبدل كل بعدهم عني بتقربي إليهم.

لم يجمعنا سوى مرض والدتي.. فيشتد وصالنا كلما اشتد مرضها، وإن كنت رفقتها فلا مجال لهم بالسؤال عنها، يكفيهم أنني موجود وبحوزتي هاتفي لأستقبل مكالمتهم للاطمئنان عليها فقط.

الكل يتذرع بانشغاله وظروفه الطارئة التي لا تنفد، وأنا سعيد بأنني من تبقى لأمي، وكأنني أقول لها: انظري يا أماه.. لم ينجب رحمك سواي.

ومن جانب آخر كانت السعادة عارمةً بمكالماتهم وسط أصدقائي الذين ما إن أفرغ من تلك المكالمات حتى أبصر الغيرة في أعينهم، لينطق لسان حال أحدهم بقوله: "أحسن حاجة فيكوا إن انتوا بتحبوا بعض.. مش زي اخواتنا"!

والحقيقة أن إحدى أمنياتي المستحيلة كانت هي وجود أخت لي.. أراها بأحلامي، أتصورها بجواري، أتحسس رائحتها كلما سكبت

دموع جفاء إخوتي على أنفي، أبصرها بجواري كلما أعجب بأنثى، أتخيلها معي دائمًا، أحكي لها كل شيء.

وحيدًا رغم كثرتنا، حزينًا رغم وفرة أموال والدي التي تركها، كل ما هنالك أن أبي قبل وفاته كان يقول لهم: "ابن الصغير يتيم يا ولاد.. انتوا كبرتوا واشتغلتوا وجوزتكوا، مش فاضل غير عبد الفتاح، الظاهر كدة زي ما سميته على اسم أبويا وكان يتيم، هو كمان هيكون يتيم".

لم أبصر - حينما كان يروي حكايته - سوى طفل ملائكي حزين، بعد أن كنا نسمع صوته الأجش ويخشاه الجميع، فلم ينكسر يومًا أمامنا، ولم نسمع له أنين ولا شكوى، سوى ضحكات يخبرنا بها فقط أنه بخير.

يهمس وهو يحكي، ويخبرك صوته المتهدج الحزين بأنه ما بين همسات وهمسات تكمن آهات تختبئ خلف الوجوه.. يحاول أن يتسلق تلك الجدران ليفر بروحه من سجن الجسد، ويعجز أمام رهبة الحرية والواقع والعبثية.

واستكمل حديثه قائلًا:

هكذا كانت بدايتي.. ومن البدايات تحسم النهايات، وتخرجت في الكلية، والتحقت بالأمن المركزي، وسارت حياتي بإخوتي الضباط الذين استعضت عنهم بما افتقدته في إخوتي، وتمردت عليهم؛ فلا

شيء يبقيني على حبهم سوى أبي وأمي، أما أنا. . فلم أر شيئًا يشفع لهم عندي، وأصبح جفائي كجفائهم، وبعدي كبعدهم.

وفي ليلةٍ كنت متجها إلى منزلي في المساء، حيث كنت لا أطيل غيابي عن منزلي لقلقي على والدتي، وللانفلات الأمني الذي ساد؛ فأوجس في نفوس الجميع خيفةً من المجهول الذي لم يعلمه أحد.

شاءت الأقدار أن أبصر عند خروجي من إحدى محلات البقالة سيارةً بها ثلاثة ملثمين حاملين جهراً أسلحةً آليةً، ورفقتهم فتاة تصرخ وتستغيث، فتسمرت، وقبضت أنفاسي، ومروا على الجميع، ولم يبال أحد بسوى أنه بخير، أما الفتاة.. فلها رب يحميها.

استقللت سيارتي، وملامح وجهها لم تفارق مخيلتي، وصراخها يتردد بأذني، وضميري يحاسبني، وأبرر: ماذا سأفعل وأنا لا أحمل إلا مسدسي الميري؟ وماذا يفعل أمام الأسلحة الآلية؟

ولا زلت أفكر وأفكر، حتى انتشلني باعث خفي كأنها أختي، كأنها شقيقتي التي طالما حلمت بها، وبطولاتي بأحلامي وأنا أحميها تجسدت إلى واقع أهرب منه، الجبن قد يفقدنا فرص تحقيق أحلامنا، أعرف أنه تهور، فما بين الشجاعة والجبن يكمن التهور.

سرت كمجنون أبحث بين الشوارع عنهم.. أسلك كل التقاطعات وأنا أتحسس، ولا أجني إلا لهاث كلاب الشوارع ونباحهم خلفي.

عدت خائب الأمل بطريق منزلي، وخط القدر بمداده الأسود نقطةً سوداء؛ فقد أبصرت السيارة التي كانت تقلهم أمامي أسفل جدران مدرسة مظلمة وسط الحقول، ومصابيح السيارة مضاءة ناحيتي.

الليل الحالك في ذاك المكان أخرس كل شجاعة جمعتها من على طرقات الحكايات والأفلام، أتلصص وأنا متوجه ناحيتها، أود أن أُخْرِس محرك السيارة حتى لا يخبر أحدهم أنني هنا، وتحسست خطا سيارتي، حتى توقفت عندها، وحينها. . وجدت السيارة خاليةً.

انتظرت هنيهةً لأستغيث بأحد يمر عليّ، ولم أر سوى ترعة وأشجار كأشباح عن يميني، وعن يساري حافة الهاوية التي سألقي بنفسي فيها.

نقيق الضفادع كأصوات طلقات نحو صدري، ونعيق البوم كخناجر تمزق أعصابي، وصوت صراصير الحقل كجرس إنذار لنهايتي؛ فاتخذت قراري بالرحيل والعودة لمنزلي؛ فلم أجد أحدًا، وهذا كاف لإرضاء ضميري حينما يحاسبني وأنا على وسادتي، وترجلت من سيارتي واتجهت نحوالسيارة حاملًا سلاحي لتأكيد ذات المعنى لنفسي، وأنني فعلت ما يجب أن يُفْعَل.

عدت إلى سيارتي، وقبل أن أدير محركها - والذي أطفأته لكي لا يشعر بي أحد - سمعت صراخها؛ فنسيت كل مخاوفي، هرولت أتسلق جدار المدرسة إلى الداخل، هناك السلالم تكسوها أكياس

القمامة المبعثرة، وظلام دامس سوى فصل تتسلل أشعة الضوء منه إلى طرقة الدور العلوي.

مع الرياح.. تطايرت الأوراق والأكياس، وتطايرت أنا الآخر، لا أدعي الشجاعة.. كل ما هنالك أنني حاولت إنقاذ أنثى لا أعرفها، بحسابات لم أكن أدركها، في حدث لا مجال فيه لتوقع النتائج.

كل احتكاك لحذائي بدرجات السلم هو احتكاك بأعصابي التي تلفت.. صرخات واستغاثات، أقترب منهم.. باب الفصل مغلق، فجثوت على ركبتي حتى وصلت إلى الشباك المطل على الطرقة.

اثنان بالداخل.. وهي منزوعة الملابس ملقاة على مرتبة ممزقة قديمة تفترش الأرض، ويغتصبها أحدهم وهو مجرد من ملابسه عند السبورة، والآخر في أحد الأركان يصنع الشاي بسخان كهربائي.

لحظات واغتنمت الفرصة، ودفعت الباب بهدوء؛ فأبصراني، ومن الارتباك.. أطلقت رصاصاتي نحوهم، وذلك آخر ما أتذكره؛ فقد فقدت الوعي، ولم تفتح أجفاني إلا بالطوارئ بالمستشفى العام...

ومكثت فيها قرابة تسعة أيام.. علمت أنني قد أصبت بطلق ناري، وهناك أمين شرطة وعسكري أمام الباب.. أخبراني أنني تحت الحراسة لحين عرضي على النيابة!

لم أبالِ؛ فأنا البطل، ومخيلتي مملوءة بنظرات تلك الفتاة حينما تلقاني.. ستتمناني كل ساعة؛ فأنا الشجاع الذي أنقذها من همجية الرعاع.

وبعد أن كنت أظن أنني بطل، صرت متهمًا بقتل الأبطال؛ لمجرد فقط أنهم ألقوا بجثمانيهما أمام قسم الشرطة، ولسوء الحظ.. كان ذاك المكان على مقربة منه.. احداث واحداث ورغم أنني لا اعمل به صرت متهما صرت قاتلا، هم حماة الفضيلة.. وأنا قاتل الشرف.. هم من ضحوا.. وأنا من خنت.

تعافيت من آلام الجسد، وظلت آلام الظلم في صدري، ولا أدري.. أغاب الحق في زمننا؟ أم أن الباطل والكذب هما سيدا هذه البلدة؟!

وانهالت الألسن بالسباب والتنديد، الكل يطالب بالقصاص مني، ولا حرج؛ فهم القتلة الذين حذرني منهم جدي، ولعب الإعلام دور نصير الحق، واتهمني أهلهما بالقتل، وأنهما ضمن الثوار، هم شهداء الوطن.. وأنا قاتلهم!!

والجميع شهداء على الحق في النيابة، ولا أملك إلا بعض كلماتي التي لم ولن تنفي ما اتهمت به؛ لم يصدقني أحد، حتى أنا.. لم أعد أصدق نفسي، فها أنا يا صاحبي السجن، ولكنني لست يوسف، بل قاتل الشهداء من الثوار.

هكذا حياتي تسير، في كل آلام الليالي كانت الدمعة رفيقي.. نطل سويًا من شرفات الذاكرة على أحداث الزمن ونحن نرتشف من كأس العجز أمام انبهارنا ببطولة الأقدار المطلقة.

لا منجى من القدر سوى أن تنحني وتخلع قبعتك.. ولا سبيل أمامك سوى أن تصفق لكل فاجعة، وكأنك كنت تنتظرها من مائة عام.

ومع اليأس وطول الانتظار... وفقدان كل أمل.. ولد بداخلي حلم لقيط... لا بد أمامك ولا سبيل سوى أن تحلم حلم حلمك الأخير.. أن تحلم بالمصيبة الكبرى...

أن تلتحف الثرى وتتوسده.. أن تحلم بالموت.. هو المصيبة الكبرى التي تخلصك من كل المصائب الصغرى.. هو الكارثة الوحيدة التي لا كارثة بعدها.

وانصرفت أنا وحسن، وودعناهم.. ليبدأ هو معي في الدروس التحذيرية منها، وليخبرني أنه لا يعلم عنها شيئًا، ومن أين تأتي بالنقود التي لا قيمة لها عندها، وإن كانت ثريةً.. فلا طاقة لنا بالأثرياء؛ فأنا متزوج!

وإننا.. وإنني.. وأنا لا آبه؛ فلا زلت القروي الساذج البسيط، حتى اتفقت معها هاتفيًا - قبل أن يحتضن كل منا وسادته - على

الذهاب لرحلة إلى الغردقة، ولطالما كانت حلمي، وتعاقبت الأيام.. حتى كنا هناك؛ فلا مجال لأحلام وسادتي التي لا تتحقق معها.

في ذلك الوقت كانت قد أوشكت ملامح اليتم في عيني أن توأد وتندثر؛ فقد أهالت عليها أتربة السعادة المحملة على ظهور العشق مغترفة بأيدي الأشواق التي لم أستطع معها إلا أن أبتسم..

لم تكن ابتسامةً. . بل سعادةً اجتاحت دهاليز قلبي.. أجبرتني على رسم أول ضحكة صافية صادقة على وجهي.. ليراها الناس، وتسجل بسجلات الزمن بالتقاط المصور لنا صورةً حينها.....

كمن حاول طيلة حياته أن يرسم الماء ويحاول رسمه شفافًا، وهذا مستحيل، ثم أمام يأسه يجد يده ترسمه بشفافيته دون دلالات لونية أو مؤشرات حسية؛ لأنه حاول رسمه لنفسه وليس للناس.....

ممسكًا يدها ونحن في الهواء الطلق.. نعلو مساحات شاسعة من ماء البحر، والتي طالما أرعبتني لدرجة أنني كنت أشعر أنه عالم غريب لا مكان فيه للتوقعات.. المصائب والكوارث تحدث فقط.. ولا يوجد منجى.

كان بالنسبة لي مكانًا للفقدان والرحيل.. منذ أن كنا نودع أقاربنا فيه وهم يحملون حقائبهم بحثًا عن المال، واختتمت عندما أبصرت

جثث عبارة السلام والموت قد لوح حينها.. كأنه لم يعد هناك حياة....

قبضت على يدها بدلًا من أمسك بما أخبرنا به مرشدنا... قبضت بقوة... فهتفت بضحكتها التي كادت أن تتجاوز كل قوى الطبيعة لتهلكني وترديني قتيلا، إنها الطبيعة بذاتها وبكارتها وبراءتها، وأيضا بمكرها وغدرها....

هتفت: "آه يا جبان".
تظن أنني أخاف على نفسي من التحليق في الهواء أو السقوط بالماء، ولا تعرف أنني ما خشيت إلا أن أفقدها... خشيت نفسي من نفسي... أن ترحل مثلما رحلوا جميعًا، أخشى أن يكون مكان ضحكتنا هو مكان دمعتنا.. ووقت سعادتنا هو وقت تعاستنا.

أود أن أحتضنها حينها، ومنعني ما قُيِّدنا به من أحزمة، وددت أن أضمها، ولكن لا يكفي الضم.. أريد أن أحتويها بداخلي؛ فجزء منها قد سكن فيّ.. أقام بداخلي.. سرى بدمائي، واستعمر جوانحي، وأقام مستوطنًا في كل شبر بجسدي.. وتعالت أصوت المستوطنات بطلبه.

لا يكفي الضم حقًا، وطالما اشتكت هي من شدة ضمي ووصفتها بالقسوة، وهي لا تعلم مبتغاي.. وطالما تسمرت أمامها بارتباك لا أعلم بأي شيء أبدأ في احتضانها، وبأي كلام أخبرها مدى شوقي وعشقي لها.

تلك اللحظات التي تسمرت فيها كانت تنعتني بأنني متبلد المشاعر، لا أتقن فنون العشق وأصول الرومانسية.. ووددت لو أخبرها أن كل فعل مجهز ومعد ومتعارف عليه ما هو إلا بروتوكول ونفاق.

ولا أصدق من كلام رجل لم تفهم من حديثه شيئًا سوى اهتزاز أحباله الصوتية. . إما خجلًا، أو فرحًا، أو حزنًا، وصاحبه سرعة تنفس واحمرار وجه.

اسأليني عن ذلك.. أخبرك أنني أبصرك بين الحين والآخر برؤية أخرى.. برؤية تلك الاهتزازات لأحبالي الصوتية التي عزف عليها قلبي، واتخذ من رئتيّ بوقًا يوقظ به كل جنود جسدي التي ما استراحت ولا استكانت إلا للعودة للبحث عنكِ.

فأحيانًا نبحث عن حضن يحطم أضلعنا لنشعر بالراحة، والجسد كفيل بإصلاح ما أتلفه من ثورات عشق.

ثم عدنا إلى غرفة كل منا.. محملين بقارب الحب، وعلى جناحي الشوق الدائم والحنين المتصل.. حتى فعلتها.. وقبلتها.

ها قد جمعنا سرير واحد، وهناك ضوء خافت في نهاية الغرفة، يطل علينا من الشموع التي أعدتها وكأنها تعلم في أي وقت أرضخ وأستسلم للعهر في نفسي....

وخنت كل شيء.. تلك هـي الخيانـة الكـبرى.. لزوجتـي.. ولمبـادئي.. ولعقائدي.. لديانتي.. لملذاتي، حتى إنها خيانة لوسادتي.

إنها تمرد على نفسي بنفسي، فأدعي العشق وأعلم أن هناك عشرات الرجال تقطر جبينهم هنا على ذات المضجع، ووضعوا تلك الوسـادة خلف رأسها، ومئات الآهات الخادعة احتضنتها تلك الوسادة.

هي الشاهد على خيـانتي وكـل الخيانـات قـبلي، هـي الـذاكر لإلـه العشق؛ فتنسينا الإله الواحد!

أعقاد ياسمين تتدلى على السرير، ولكنها صـناعية لا رائحـة فيهـا ولا حياة، كمـن كنـت أضـاجعها.. كانـت تتجمـل لدرجـة أنهـا تجعلـك تشتهيها دون حسابات.. هي العهـر بعينـه.. في ملبسـها، وحـديثها، وغرفتها.. حتى وسادتها ا التي ألبسـتها غطـاءَ حريريًـا أحمـر.. تريـد هي الأخرى أن تتعرى كلما وضعت كفي عليها لأكمل خياناتي.

العشرات قد أتوا إلى تلك البقعة المدنسـة بكـل ذل لشـهوة وتصـنع بالحب.. كثيرون خانوا أنفسهم هنا قبل خيانة الوطن هناك.

وبعد أن أنهكت قوانا واستلقينا، قالت:

كم تتقاضى بمكتب المحاماة الذي تعمل به؟

قلت: يعني.. مرتب كويس الحمد لله.

قالت: كام يعني؟؟ مش هحسدك والله.

قلت: حوالي ثلاثة آلاف، وممكن تزيد ساعات.

قالت: يااااه، ولكنك تمتلك عقلًا وشخصيةً قد تجني لك أكثر من ذلك!

- الحمد لله، لا أثمن من الستر.. لقد جربت الفقر لأمثالي، رأيت الفقر بعد الغني، وذقت الحاجة والعوز بعد الاستغناء.

- اترك عملك واعمل معي؛ فأنت لم تسألني يومًا عنه.

قلت: أردت ألا أسالك عن شيء حتى تحدثيني عنه.

قالت: أنا أعمل بمنظمة حقوقية، وأتقاضى سبعة آلاف كأجر ثابت بخلاف المكافآت، وكل ما هنالك أنني أبحث عن شيء يُنْتَقَد أو فساد، وأرسل إليهم تقريرًا بذلك.

- وهل تلك المنظمة حكومية؟

ضحكت حتى القهقهة، وقالت: لا.. دولية.

- وما الأوراق المطلوبة؟

قالت: لا يوجد أوراق سوى أنني سأرشحك لتنضم كعضو معنا، وما عليك سوى أن تنادي بالليبرالية وتؤمن بالشيوعية، وتتخذ من كارل ماركس قدو ةً، وتصنع منه في عيون من تعرفهم زعيمًا، وكل ذلك بالنسبة إليك سهل إن وافقتني.. لا استيقاظ مبكر، ولا التزامات، بل ندوات ومؤتمرات سنكافأ عليها أيضًا، فَكِّر في الأمر.. أنا سأغادر في الصباح.. لقد أمضيت أجمل أيام حياتي معك؛ فلدي التزامات عائلية هناك.. بحبك.

كاذ ت أول مرة تتلفظها، ولكنها ليست كما حلمت بها يومًا، إنها تقولها وكأنها تخبرني أنها تملكتني وصرت أسيرًا لها، وللأسف.. إنها الحقيقة، وثار الجدل حتى الصباح.

ليس هناك ما هو أصعب على الإنسان من الغربة.. أن تعيش في جسد ليس جسدك. . وبين جدران مسكن لم تألفه يومًا.. وبين كثبان أناس ليسوا ناسك.. وفي مدينة ليست مدينتك.. في وطن ليس وطنك.. والأصعب من ذلك كله. . أن تستعمر قلبًا ليس قلبك.

كل أحلامك ليست لك.. حتى ذكرياتك ليست ذكرياتك.. عالمك الحقيقي بداخلك أنت. . لا تصدق كل ما قالوه يومًا أننا نعيش بعالم واحد.. مخطئ من يصدق ذلك.. شعاراتهم ليست شعاراتك.. وقِيَمُهُم ليست قيمك.

العالم الحقيقي يسكن بداخل كل منا.. والكل له عالمه الخاص به.. لا تعلم من عالمك سوى لحظات ما قبل النوم التي تضع فيها رأسك على وسادتك لتطمئن عليها من خلف جدار الواقع.. قفزات بالخيال كقفزات من خلف الجدران. . تحاول فيها أن تبصر شيئًا فلا تبصر.

تلك اللحظات تنتهك فيها كل حدود الزمن والمعقول والمنطق.. تحلق بعيدًا إلى عالمك لتراه من بلورته السحرية وهي نفسك، وتديره بعصا الساحر وهي قلبك...

من منا لم يتوارث عاداته.. من منا لم يتوارث شخصيته.. من منا لم تقده ظروفه وبيئته لما هو عليه. . من منا هو قلبه حقًا.. من منا يرضى رضًا كاملًا عن أفعاله وتصرفاته.. من منا ليس له عالمه

الخاص.. ومن منا يستطيع أن يحدد معالمه وحدوده.. وهل هناك ارتباط بين ذاك العالم والعالم المفروض علينا؟

نفوسنا تحمل عالمًا آخر لا نقوى على معرفة حقيقته والإيمان به.. عالم حدوده لا منتهى لها، وأحلامه لا درب يقودك إليها.. عالم نفوسنا كهوة بلا قاع بداخلنا.. نلقي بها كل أحلامنا.. حتى لا يعثر عليها أحدهم ممن ساقونا وأكرهونا لنتمنى أمانيهم ونحلم أحلامهم، وننافق كنفاقهم ونكذب لنبهرهم، ونتجمل ليتعلقوا بنا، وما أردناهم وما أرادونا.

ما السر في سعادتي مع شخص وبغضي لآخر؟ وهل أفعاله هي التي وضعته على رف إما المحبوبين أو المبغوضين إلى قلبي؟ وهل أفعاله هي التي رتبت له تلك المكانة؟ أم أنها لم تتوافق مع نفسي؟ وهل أرضت نفوس آخرين فتعلقوا بهم وأحبوهم؟ ممكن.. فلا يوجد في العالم وحيد إلا من أراد ذلك؟ حتى القتلة لهم محبوهم ومريدوهم...

وهل أي منّا يجرؤ على أن يبوح بأحلامه؟ هل نخجل منها؟ وما الخجل؟ وممن نخجل؟ وممن لا نخجل؟ وما المخجل في أحلامنا؟ العيب.. الممنوع.. الواجب؟ ومن وضع ذلك.. هم؟ من هم؟؟ هم أيضًا العهر في عقر نفوسهم.. والخطيئة مجبولون عليها.. والجهل في أحلامهم مشاع...

لماذا أستمتع بالموسيقى؟ ولم لحن يجذبني دون غيره؟ وما الموسيقى؟ وما الذي تحركه فينا؟ وما الذي نشعر به؟ وهل

نستطيع أن نصفه بالكتابة بلغتنا؟ ولماذا ولماذا وألف لماذا لدي، وبجعبتي ألف سؤال.
كل ما يملأ يومنا هو نفاق وأفعال اعتدنا عليها لإرضاء الآخرين، وأخرى اضطررنا إليها لنوائم الواقع.. والكل يكذب وينافق ويقتل تحت سياسة البقاء.

ما أحوجني إلى الوسادة! ما أحوجني إلى أن أغوص برأسي فيها لأصل إلى أعماق الماضي بداخلي، وأجذب كنزي الذي خبأته بصندوق الطفولة لأبعثر كل ما حولي من لآلئ ودرر! براءة الأطفال، وأحلامي البسيطة، وانتهاكي لكل مألوف. . ولا أجد جوابًا لأسئلة كثيرة؛ فأبحث عن أخرى...
سؤال واحد أبتغي إجابةً عليه...
هل أحبها؟
سؤال قد لخص كل كوارثي وحسناتي وسيئاتي.. لملم أحلامي الصغرى وآمالي الكبرى وكل مبادئي وعقائدي. . اليوم أقف متصلبًا ومتسمرًا أمامه، لا أجد الرد.. أتدري لماذا؟ هي الغربة يا عزيزي.. هي الغربة بعينها يا صديقي...
لا أقوى على الإجابة إلا على وسادتي.. فإذا أردت أن تسألني اسألني هناك وأنا ملق برأسي عليها، وإن أردت أن تعرف الإجابة اعرفها هناك قبل أن ألبس جسدًا ليس جسدي، وأتحدث بلسان غيري، ويتبدل العقل، وتتبدل الشخصيات.
وإذا أردت أن تعرفني اسبقني إلى هناك.. إلى الوسادة...

الهلوسة السابعة

ضاقت بي الأرض، وكأن لا أرض لي إلا هي.. وتوقف الزمان، وكأن عقارب الساعة تديرها دقات قلبي بجوارها، وانطفأت كل أنوار المدينة، ولم تعد تشدني صهاريج مصابيحها، لم يبق لي إلا شبح جسد تملكته قوى الطبيعة عندها.

الحزن بدعة ابتدعناها لأنفسنا لنخفي به كل عجز أمام القدر، وكل صدمة من صدمات الزمان.

ولم أبصر سوى ذات القطار الذي حملني إلى ذات المدينة في أول رحلة حاولت أن أ ستكشف فيها عالمًا لم أكن أراه إلا في قصاصات الجرائد وشاشات التلفاز، حملني.. وكان ببهجة سفري ملايين الأحلام والتوقعات والآمال التي أفرغتها عند قدم أنثى، لأسلمها دروع واقعي وخيالي، وأرفع رايتي البيضاء، لأعود حاملًا رسالةً لأمثالي أنه لا مكان لنا في ذلك العالم.

وتصببت قطرات المطر، وبجواري كهل عجوز اتخذته رفيقًا بعد أن علمنا بتعطل آخر قطار، وانصرفنا سويًا نتسكع كسكارى آخر الليل لنبحث عن مواصلة تقلنا من سيارات الأجرة، وقد انسابت مني

الكلمات دون أن أدري لأروي لـه حكـايتي حتـى انتهيـت؛ فتبسـم مليّا، ثم قال:

علام تبكي وقد استدعتك طينتك فأجبت ولم تعترض؟

فتعجبت قائلًا: وما دخل هذا بما رويته لك؟

فنظر نظرةً ثابتـةً - في عينـي كانـت - للحظـات، نقلـت إلى صـدري لوغاريتمات حسيةً لم أستطع فك شفراتها، ثم انكسرت تلك النظـرة بانحناء عيناه نحو الأرض، ثم مـال، وقـبض عـلى قبضـة مـن الطـين الـذي صـنعته ميـاه المطـر بمـا حملـه القـرويين أمثـالي مـن أتربـة بأحذيتهم ليدنسوا بها تلك المدينة...

ونظـر إلى حفنـة الطـين، وجـذب يـدي نحـوه، ووضـعها فيهـا، ثـم انصرف؛ فقد أرجف البرد جسده محاربًا أمطار السماء، ليجلس على مقعد انتظار غير آبه بما يدور حوله من أحوال جوية...

تَسَـمّرت، ولا أدري مـا قصـده مـن ذلـك سـوى أنـه عنـدما أراد أن يشعل سيجارته وانطفأت من المطر أيقظ فيّ أنني مدخن، فتوجهنـا إلى مقهى أشبه بأنه قد أغلق أبوابه، وملم مقاعده، وحينما دلفنا.. أخبرنا العامل أنه أغلق - وبكل ابتسامة صافية - قائلًا:

طفينا ع الولعة.. بس تعالوا.. انتوا زباين آخر الليل.. اوقفوا جنب النار هنا يمكن تدفوا... أرصلكوا حجر معايا ولا أعملكوا سحلب يدفيكو..

فلم نجب؛ فكلانا حمل بما أثقل لسانه وأخرس عقله، وتوجهنا نحوالنار لنتدفأ بخجل؛ فتعالى صوته:
إيه يا أسيادنا.. ما تردوا ولا ارموا السلام.. ولا تكونوش مباحث.

فأجاب هو بهدوء الصقيع والشيخوخة.. لو مباحث مكناش دخلنا التلاجة يا معلم.

فعادت البسمة على أوداج عامل المقهى مردداً.. يبقى أنت زومل في التلاجة، وحلال عليك أحلى حجر معسل سلوم في العالم.

كل ذلك وأنا ممسك بيدي بعضًا من بقايا حفنة الطين التي أذاب المطر معظمها، وكأنني تشبثت به أو بما أبتغيه من حكمته.

وبدأت أحتسي القهوة، وينفث هو دخان شيشته في السماء، وكأنه يلفظ معه كل ما بداخله من أوجاع، ونظر متنهدًا إلى حفنة الطين بيدي، وتحدث بصوت متهدج حزين قائلًا:

كل أم تطلب وليدها وتبحث عنه ولا تستريح إلا باحتضانه.. انظر إلى حفنة الطين وستعلم أنك تقبض على أمك بيديك.. أليست أمنا الأرض وقد خلقنا الله منها؟

أعط لنفسك يا بني خمس دقائق في اليوم لتتأمل حفنة الطين فقط، وتذكر أن حباتها قد تكون طافت العالم برياح أجبرتها أو قوافل راحلين أجلتها أو أجساد موتى قد خلفتها أو.. أو..... ثم اجتمعت في قبضتك ولا تدري سوى أنك تقبض عليها وتشعر أنك تتملكها وأنها مجرد حبات رمل...

تلك الحقيقة الظاهرة.. أما الحقيقة بذاتها أنها حملت أقدام ملوك وصعاليك وشيوخ وقساوسة وملحدين وعاهرات وكم حملت!

وكم أقيم عليها صلوات وذبح عليها قرابين! وأيضا كم ارتكبت معاصي عليها وقتل عليها مظلومين وانتقم الزمان من ظالمين! كم رحمة وكم لعنة حلت عليها! وكم من الأفراح والأحزان كان عليها!

كم ثمرة أخرجت من بطنها! وكم من أكل ثمارها! وكم من قصة حب نبتت عليها وفراق أضحى أصحابه عليها! كم من وليد استقبلته الحياة وفقيد توفاه الله عليها! كم من أخرج فضلاته عليها! وكم من ماء تبخر من البحار والأنهار وسار آلاف الأميال ليتساقط عليها كما الآن!

كم دنست وكم طهرت! كم وكم... تاريخ بشقيه.. إن نظرت لوجهه السيئ وكشفه الله لك ستلقيها من يدك، وستغسل يدك مائة مرة؛ لتتخلص من دناستها ورجسها.

وإن كشف لك عن وجهها الطاهر البريء لتروي لك كم أخرجت من ورودها وقصص حب وبطولات وتضحيات عليها ستحتضنها بكفيك، وستسألها عن قصة كل من مر عليها وكأنه أنت، وستقبلها بشفتيك كأنك تقبل كل من مروا عليها وتقبل ذكراهم، وتشم بأنفك عبق كل منهم، وكل أنثى وكأنها معشوقتك...

كذلك هي الدنيا، وهكذا كل منا.. ما أقبح رذائله! وما أجمل وأروع فضائله! فانظر له مما أردت من وجهيه...

ويكفيك أن تبحث في ذلك العالم عن قليل من الوفاء واقنع به؛ فالوفاء الكامل بضاعة باهظة الثمن لا وجود لها بزماننا، ستبتاعها من أسواق الماضي، وستدفع ثمنها ألف مستقبل، ومائة أمل تائه، وعشرات الدموع الحزينة.

لم أجبه، ولم أقدر على أن ألقي حفنة الطين من يدي، وكأنني أتخذها لتسجل كلمات رجل أضنته الحياة؛ فاستوى حلوها ومرها، وتساوت أسنان أقلام الدهر بدفاتره.. فليكتب بأي قلم وبأي لون؛ فلن يأتي أسوأ مما مر عليه، ولن يسعده شيء سوى استعادته شيئًا فقد منه، لا أعلمه، ولن يحدث....

فلا مجال للماضي سوى ما خلفه مداده على أوراق حياتنا وما نقشه عليها، ولا نملك من تلك الحياة إلا أن نصفق أو نصعق، أو أن ندون بدفاتر ذاكرتنا ما امتنع القدر أن يعطينا نسخةً مطبوعةً

منه، ولا حيثيات حكمه فيما قضى.. وكأنه هو من امتلك حق النشر والتوزيع والتعليق والنقد.. ولا يدري، ولن يدري!

فلن تدري نفس ماذا ستكسب غدًا وبأي أرض تموت...

قلت له مسرعًا، ولكني إن غفرت لها ذنوبها سيبقى عار لن أقوى على محوه يومًا.. إنها تتبع منظمات دولية مشكوك في أهدافها، وتعتنق أفكارًا شيوعيةً بمعنى الكلمة.

فقاطعني: ليبرالية قصدك؟

قلت: لا. . حين تناقشنا تعصبت قائلةً: "كفانا من الديانات ما لاقينا.. الدين هو أفيون الشعوب يا عزيزي".

صدق ماركس حين قالها؛ فهو يهودي صدق حاله وأهداف ديانته.. وصدقت هي بالأفيون الذي يتعاطاه أمثالهم ليخبئوا وقاحتهم وتعصبهم، ليطالبوا بحرية الرأي الأعمى والوحيد، وهو الفوضى واللاأخلاق والتحلل والهمجية والوحشية.

فقال: وهل حاولت إقناعها بأن تعود عن ذلك؟

قلت: لا.. ولكني متيقن من أنني إن غفرت كل دناستها فلن أغفر لها ذلك، وتلك خيانة وطن. . آثرت أن أخون نفسي- وحدها بدلًا من أن أخون وطنًا بأسره.

صمت هنية ثم عاد ليسألني:
وماذا قدم لك الوطن؟؟

ألم يجعلك يتيمًا ذات يوم وأفقدك كل ما تملك؟؟ خن الوطن أو خن نفسك.. لن تختلف الأمور ولن تتغير، ولن يخرج علينا المسئولون في شاشات التلفاز، ولن يقيموا الحفلات ليكرموك على تضحياتك أو حتى يسردوها لغيرهم....

ايييييه.. مجانين أمثالك يا عزيزي.....

فكم من التضحيات مات من أجلها أصحابها ولم يذكرهم أحد لذلك! ويكرم من افتتح مشروع استثماري ليكون افتتاحًا لزيادة ثروته، ويسألونه: كيف أتت إليك الفكرة؟؟ ولا مجال للمقارنة؛ ففي التضحيات الأفكار تأتي فقط، ولامجال لدراسة الجدوى؛ فلن تذكر سوى الخسائر؟؟

الحال تبدل يا صديقي.. اخلع عن نفسك بذلة العسكرية التي خلعتك منها ولفظتك من فكيها، والتحق بأحد نوادي كرة القدم وستصبح حديث الشعب، وما تحب وما تكره، وممن تزوجت، ولماذا هي دون غيرها.....

من محباتك ومعجبوك، ومن تحب وأين تسكن، وسيهتم الناس بكل تفاصيل حياتك، خاصةً اللاتي لم يصبهن الزواج.. أليس هذا عرضًا مغريًا؟

أو خاطر وغامر، ومثل مشهدًا إباحيًا في أحد الأفلام التي يقولون عنها إنها تقدم رسالةً للمجتمع، ويلبسونها ثوب الفضيلة والعفاف ليخفوا دناستها وعهرها ونجاستها؛ وستصبح فتى الشاشة؛ لتغدق عليك شركات الإنتاج آلاف الجنيهات...

الحياة أصبحت لا تحمل بين أنيابها إلا الدماء.. وقوانينها تضاربت وتشابكت، فلطالما أبصرت أمًّا بأطفالها تبعثر أكياس القمامة لاهثةً قبل أن يبصرها أحد لتلتقط كسرة خبز تطعم بها أطفالها الجياع.. لا تقوى على التسول ومد اليد؛ فهناك من سبقها لذلك، وجعل من التسول مهنةً يحارب وينافس من أجلها.

لا عار في التسول.. إنما العار في أن تتبدل القوانين؛ فيصبح الحديد لينًا والماء صلبًا، ويتسول ذوو القدرة والصحة، ويموت جوعًا المساكين والضعفاء.. حتى الدول لا يتسول منها إلا ذوو القوة؛ فيمتصون دماء الضعفاء؛ ليزداد القوي في قوته، ويموت الضعيف من قلة حيلته.

وا أسفا على الجميع؛ فالكل يتغنى بعمر بن الخطاب كمثل أعلى في الحكم.. الجميع يبحث عن عمر.. يتحاكى عن عمر.. قبل أن تجد

عمر. . جد ناسًا كمن عايشوا عمر.. أو جد الفضيلة التي سادت في زمنه.. وأعدك بأننا سنجد ألف عمر وعلي.

ابحث عمن يوقرك لذاتك قبل ممتلكاتك وأشيائك، جد الوفاء بينك وبين أهل بيتك أولًا.. ثم أعدك بالوفاء من الوطن، اخلق الحب بينك وبين كل من تعرفه.. وأعدك بمدينة فاضلة أفضل مما كتب عنها الفارابي، وأعظم مما حلم بها أفلاطون.

تريد جوابًا مني عن تساؤلاتك.. اذكر لي آخر مرة أمسكت ألف واحدة منها دون ديون، وسأخلع القبعة وأنحني أمام تضحياتك للوطن.

هل تعلم أن حسين سكر قد أصبح رجل أعمال ثم عضومجلس شعب من تجارة أسلاك الكهرباء النحاسية المسروقة والكل يعلم ذلك.. يكرمونه ويوقرونه لأنه خان الوطن وسرقه؟!

ماذا حدث عندما احترقت سيارته؟ مئات من رجال الشرطة جاءوا ليبحثوا عن الجاني!

اخلع عنك قميصك لترني مكان ما أصابك من رصاص الإرهابيين.. من الذي زارك بالمستشفى وأنت طريح الفراش؟ من الذي ذكرك ممن تضحي من أجلهم؟ ومن اطمأن أنك لا زلت على قيد الحياة؟

اذكر لي ماذا كانت هدية الوطن لك، ألم يهدك الوطن ستة أشهر راحة وتكريمًا قضيتها في دهاليز السجون؟ وألبسوك قيودهم الحديدية في حفل زفاف هو جلسة محاكمتك، واهتم الناس بأمرك وكنت حديث الصحافة والإعلام في خيانة الوطن..

ثم ضحك بتهكم مردفًا: أخفِ ما خَلَّفَه الوطن بجسدك، ثم تحدث عن الوطن.

أتدري يا بني ما أبكاني حقًا؟ إنه بعد ما لاقى الوطن من أوجاع، وما حصد من تضحيات.. أفاجأ بإعلام قد حصره في أم كلثوم وعبد الوهاب وحليم وسيد درويش...

هم من تقاضوا مقابلًا نظير أغانيهم الوطنية.. حينها كانوا يستقبلون التهليل والتصفيق على المسارح بانحناءات بسيطة تحافظ على كياستهم، أما نحن.. كنا نقابل الموت بالجملة، والرصاص كذباب الصيف.. لا تعرف من أين يأتي وأين يختبئ.. ولنا حفل ألعاب نارية كل يوم احتفالًا بالحرب، فتجد من بجوارك قد فتته قنبلة من العدو، أو دهست جسده دباباتهم وهشمت أضلعه ورأسه!

ماذا فعل الوطن حينها؟ وماذا أعطانا لنعطيه؟ أنت في زمن الرخص يا صديقي. . كلما ازددت رخصًا ازددت شهرةً وغنًى وتقديرًا وحبًا لدى الجموع.

وكلما ازددت أخلاقًا ومبدأً وترفعت عن الرذائل وخانتك شجاعتك لمزيد من التضحيات ستظل تبذلها، ولكن من أجل آخرين ترخصوا وكوفئوا بدلًا عنك، ولم تنل أنت سوى بضعة أوراق ستدفع رسومها مثلك مثلهم.

لا شأن للوطن بتضحياتك وما سددته من رسوم ووردته بحساب الوطن ببنوك الشعارات والحروب والمؤامرات.. ورقة أعدك أنها ستخلد اسمك بالأحوال المدنية.. هي تصريح دفن وشهادة وفاة....

وانصرف كل منا يلملم ملابسه خشية الصقيع، فما هب الصقيع حينها إلا بصحراء قلبي التي دمرت ما شيدته من بروج أحلام ورصفته من دروب خيالية لقطر الآمال، وإشارات انتظار للسعادة وضعتها خشية تهور في الحب..

حتى ضفتي نهر الشوق قد بعثرت عليها مقاعد انتظار اللقاء، وهبت رياح اليأس لتأخذها بعيدًا حيث لا رؤية من أتربة الماضي القذر وأوراق أشجار الطبائع المدنسة.. فمن غاصت قدمه بالوحل لن تخرج نظيفةً، حتى وإن غسلها سيتشبث بعض الوحل بأظافره.....

ألف فكرة وفكرة كانت تصدم رأسي.. بل تصدم قلبي بالشحنات الكهربية لتحييه؛ فما تزيده إلا كسلًا وخمولًا، حتى وصلت لمنزلي والبرد قد استهوته قدماي؛ لدرجة أنني بمجرد أن فتحت الباب حتى طرت كمجنون للحَمّام.

obeikandl.com

الهلوسة السابعة

رحلت ولم يقنع الوطن ولم تقنع الأقدار أنه لا مجال للتضحيات في جعبتي التي خرجت بها من قريتنا أكثر مما قدمت، وأنني ما عدت أملك شيئًا.. راحلًا لقريتي.. لتتلقفني أكف الناس بالسلام الذي لا سلام فيه....

سلام تحتضنني فيه قريتي كاحتضان الجسد لخلية صالحة بعد أن تملك منها السرطان و تفشى فيها، وتترقبني أعينهم بالشماتة تارةً وبالشفقة تارةً أخرى...

وتنصيبي على كرسي المثل للصغار في الصبر والصمود أمام المداد الأسود الذي ما عرفت غيره، أو عبرة بباقي الألوان؛ فيعتبر غيري، ويخرج من كهف التضحيات لدرب انتهاز الفرص بإضاءة شمعة يهتدي بها في دربه، ويقرأ ما دُوِّن بيوميات حياته الروتينية، وينشئ دفترًا ومستقبلًا لأولاده.. وبما تركته شمعته في جسد الوطن هي الصورة الشخصية له في دفتره.....

هي وثيقة التعارف الأولى بينه وبين وطن لم يقبل ما ربت على جسده بدلا من أن يغرس فيه شمعة....

زمن الشموع سيدي.. ولا ينقصك إلا أن تضع فتيل العمر فيه، وتذيب بعضًا من شحوم الواقع لتصنع لك شمعةً تضيء بها يومك، ومتى ألقيت رأسك على وسادتك فلا حاجة لك بها؛ فعلى الوسائد - مهما ساد الظلام - لا حاجة لنا بالشموع.

ركبت القطار.. وتذكرت آخر لقاء مع الأستاذ سعيد الذي - بدلًا من أن يهديني- حَيّرَني وتوهني في سراديب فكره المشرقة، وتذكرت حينها عندما اتصلت به وسألته عن حاله فأخبرني أنه لم يرحل، وأنه يجلس على ذات المقهى التي كانت قد جمعتنا ليلة الصقيع، ولم أدر سوى أنني ساقتني قدماي له حتى جلست بجواره وهو ينفث دخان شيشته، وتبسم وقال:

حمد الله على السلامة.. طمني.. عملت إيه؟

فأجبته: في إيه؟

قال: مع الجو يا سيدي!

تنهدت وهربت أسراري وتساؤلاتي لأقصها عليه، وحاولت إفهامه: أتدري أنني تَحَيّرت فيها.. أراها بكل الزوايا.. وفي كل الحنايا.. هي ملاك كل ضوء.. وشبح كل ظلام.. أمل كل يائس.. ويأس كل متفائل.. هي المنطق واللا منطق.. والمعقول واللا معقول.. هي المقبول واللا مقبول.. الحقيقة والوهم، هي الشحنات الموجبة التي

تقذف في قلبي السعادة، والشحنات السالبة التي تنتزع كل آمالي وأحلامي، هي الخجل والوقاحة.. الإقدام والإحجام.. العطاء والشح.. الكرم والبخل.

لن تأخذ منها أكثر مما أرادت، ولن تسرف فيما أعطت، ولن يمنع كرمها من أن تسلب.

هي الطغيان وفي جوفه الرحمة، وهي الرحمة مغلفة بالجور.. هي صخرة الإلحاد يتفجر منها ينبوع الإيمان.. الشهوانية المطلقة والزهد المطلق.

تَحَيّرت وتهت في بحور أفعالها وشطآن كلامها المعسول الذي هو السم ذاته الذي يقتل دون أثر.. الموت البطيء في عينيها، والهلاك في مقلتيها، والتيه كل التيه في ملامح وجهها.

النشوة في ابتسامة أوداجها.. البأس في عقد جبينها.. اليتم في ملمس أناملها، والغدر بين أحضانها، والأنس في كنفها...

وأنا ما بين تلك الأضداد ومدلولاتها، وبين الوجهين مطبق عليّ، ولا مفر سوى بضع أحلام وقطرات دموع تبلل وسادتي.

أجابني بعصبية: يا بني افهم.. أنا وأنت وهي وغيرنا عاهر ومؤمن في ذات الوقت.. كلنا أضداد يا بني.

فازددت حيرةً، ولكني ازددت شوقًا لفلسفته العميقة البسيطة، وكأنني أتذرع بمشكلتي لأستلهم منها ما قد يجعل المصائب تتعرى أمامي؛ فأدير لها ظهري كما أدرته عندما ألقت سلمى برأسها على وسادتي، وصمتُّ حتى لا تتبعثر أوراق أفكاره وينصرف ذهنه؛

فازداد تيهًا، وأردف: لم تصلك فكرتي حين تقابلنا، ويجب على من تحبها ألا تسكن قلبك، بل أن تقتلع مخك فتنظفه مما علق به من غباء.

وضحك ضحكةً صاخبةً انقطعت بنظرة إلى فحم الشيشة وهو يضغط عليه ويسحب نفسًا تلو الآخر قائلًا:

ما من شيء خلقه الله إلا يحمل المتناقضات.. الشيء وضده في آن واحد، الإنسان والحيوان، حتى النبات يحمل ذرات نموه وبقائه وذرات فنائه في آن واحد، حتى عالم المادة يحمل المتناقضين...

لا تبحث عن الحقائق؛ فما يظهر لنا شيء وما يخفى علينا هو نقيضه، أجسادنا تنمو وتموت فيها مئات الخلايا يوميًا ولا ندري، حتى الحديد.. رغم صلابته به ثقوب هي أصل الصدأ وباب فنائه...

وأي شخص تعرفه.. أنا.. والدك.. والدتك.. والدتي.. يحمل بين جنباته شخصين.. الأول مؤمن، والثاني عاهر.. الكل صديقي.. حتى أنا، ولا أسلم من العهر شبرًا...

انظـر لدقيقـة إلى مـن يمـر أمامنـا ونحـن جلـوس، سـتجد الشـيخ والراهب والراقصة والعارية والفاجرة والمتدين والمتسكع واللاهـث وراء المادة والمهرول خلف شـهوته.. ثـم أجـب عـلى نفسـك: كيـف حكمت على كل منهم بوصفه؟

سأوفر عليك أنا عناء الإجابة.. حكمت من المظهر والظاهر لك، أمـا السرائر. . فلا تدري عنها شيئًا، وما أدراك. . فقد يكـون الشـيخ زانيًـا، وكم من حالات تيقناها! والعاهرة قد تكون عائلةً لأسرة قد جاعـت جوع البادية ولأم أسكنها المرض الفراش...

مسرح للجميع.. الكل يرتدي زي ما أتقنـه مـن دور لإقنـاع النـاس، وكلـما ازداد إقناعًـا ازداد أدوارًا وبطولـةً وازداد تصـفيق النـاس لـه، يحيون فيه تمثيله وليس دوره...

أنت وأنا منافقان ولا حرج.. من منا لم يوزع ابتسامات على أعدائه وخصومه؟ من منا لم ينشر الفرحة والترحيب بأناس اقتحمـوا حياتـه كرهًا واستعمروا أفكاره واستوطنوا منزله؟

قل لي من أنت أقل لـك أنـت كـذاب.. لسـت فـلان الفـلان، ولا أن تخبرني أنك تحـب كـذا وتكـره كـذا، ولـن أعرفـك إلا إذا مـررت إلى الهوة التي بلا قاع.. إلى داخلك.. إلى نفسك التي بين جنبيك....

قل لي ماذا تفعل في يومك وما الذي تحبه وأنت على وسادتك، وسأعترف أني مخطئ، قل لي فيم تفكر وأنت على وسادتك وحدك وأنت تحلق بخيالك دون قيود.. ماذا تريد أن تكون.. بم تحلم أن تفعل.. من تستهويه ليعيش بعالمك ويسكن قلبك وبيتك بحق وليس استجابةً للأقدار.. فكر وستدهش وتعجب حتى من نفسك.

الكل عاهر، والكل مؤمن في نفس الوقت.. الشخصان بداخلنا، لكن البيئة والظروف والعائلة ومتطلبات الحياة والدين والعادات والتقاليد والخوف والقلق وعوامل أخرى كثيرة قد تنتصر لإحدى الشخصيتين على الأخرى، فلا تلغيها.. بل تخفيها ليس إلا.

ولتبتسم.. وليسخر من ذلك الشخص العاهر بداخلك؛ لأنني تحدثت بلا حرج أو تكلف أيها العاهر المؤمن.

وتبسمت واستهواني الجدال.. كل ذاك الجدل بيني وبينه وهو لا يعلم أنني أبتغي تأييدًا ولو صوتًا واحدًا لما اتخذته من قرارات وقلت:

إذن إن كنت سيئًا.. فلماذا إذن أهواها؟ ولماذا لا تزال تطاردني بتفكيري وتستعبد آمالي وتعانق أحلامي؟

قال: خيوط يا عزيـزي، أو بـالأدق خيوطـك هـي التـي قتلتـك كـما تفعل دودة القز بنفسـها، فتظـل تنسـج حريـرًا حـول نفسـها حتـى تموت، أفق ولا تمت موتتها، ولا تنسج ما قد يرديك ويسعد غيرك.. ارحل عنها وعد لبلدتك، وكن كما كنت.. عد لزوجتك وأهلك.

وكأنه قد أيقظ فيّ حنيني لبيتي، ووددت أن أخـبره عـن آخـر لقـاء بيني وبينها حينما حاولت أن تقنعني بأفكارها الموءودة ولم تـنجح، حينما أيقظت فيّ غيرتي على الـوطن وحبـي لـه، فحيـنما اسـتباحت وطنيتي استبحت حبي لها.

orbankandl.com

obeikandl.com

الهلوسة الثامنة

كان آخر كلامي لسلمى:

تتفقي معي إننا كلنا بذور كما قال الله (عز وجل) في كتابه: "كما بدأنا أول خلق نعيده". فعلام التسابق يا عجب الذنب... ضحكت وأردفت تسأل: وما هو عجب الذنب ذاك؟!

قلت: خلقنا الله من خلية أولى وهي عجب الذنب، ونكتمل في بطون أمهاتنا، ونولد ونحيا وتتجدد كل الخلايا في الجسد إلا تلك الخلية، ونموت وتبقى هي لا تتحلل، ويوم البعث ينبت كل منا من عجب ذنبه.. هو البذرة التي سننبت منها.

دققي في تلك الفكرة وستعلمين إن كنت قرويةً مثلي أن البذرة المعطوبة تخرج وتنبت ولكن مشوهةً، ولا ثمر ولا خير فيها، وأنا لن أعيش معطوبًا ولا مشوهًا، ولن أنبت كذلك.

الوطن هو الأم.. هو الملاذ لي.. أسيلت دماء تملأ المحيطات والبحار من أجله، ولم ينتظر من أسيلت دماؤهم مقابلًا، ولم يفروا من الموت، بل كانوا يحتضنون السيوف كما لو كانت هي الإبرة الطبية التي فيها شفاؤهم في زمن تفشى فيه المرض...

لا تطلبي مني أن أخون من بكيت بينهم وصرخت أول صرخة بعد ولادتي في وجههم، وكانوا هم كالمجانين ليحصلوا ولو على ابتسامة، وكانت أولى ابتساماتي البريئة في وجههم..

هم فرحوا بصراخي قبل ابتساماتي، ولم يضجروا منه.

أنت تطلبين المستحيل من الأسير الذي لا حول له ولا قوة أمام ذاكرته الطفولية التي تتشبث بطفولته ونعومة أظافره في أحضانها، وتعلم الخطو على أرضها، أول قلم قبضت عليه أنامله في مدارسها، وأول كلمة قرأها في فصولها، وأنا عاجز والكل يترقب كل فعل حتى كبرت....

فأقابل مئات الوجوه التي ظلت ترقبني بأول خيانة لي.. كيف؟ فما هي إلا خيانة للثلاثين عامًا من عمري التي مرت، هي خيانة للدم في عروقي الذي نبت من ثمار نبتت من أشجار نبتت من أجساد أناس ضحوا بها من أجل الوطن....

وإن خنت الجميع.. كيف أ خون عجب الذنب فيّ؟ وهل سيغفر لي تلك الخيانة؟ وهل سيسامحني الله فيه؟ وكيف أخون بعض التراب الذي سيهال على جسدي بعد الممات؟

لن يقابل هو الخيانة بخيانة، ولن يلفظني، بل سيحتضنني كما احتضنت سرتي عند ولادتي وفضلاتي طيلة حياتي ولم أهده شيئًا جميلًا.. كل ما احتضنه الوطن مني قبيح.. فهل أكافئه بالأقبح؟!

فَكِّري في الجميع.. ثم اتخذي قرارك أنت لا أنا، وحال تفكيرك اذكري لنفسك شيئًا بسيطًا قدمتيه للوطن لتحاسبيه عليه، وتتمردي كما كنت تتمردين على أمك التي ضحت بكل ما تملك من أجلك.

تذكري حقيقةً واحدةً.. أننا ليس بيننا إله كي نوليه الحكم فيعطي كل شيء من اللاشيء وكأنه بيده مقاليد الأمور...

واحد أحد هو من يقول للشيء كن فيكون، هو الله (عز وجل)، ودون ذلك لا يملك أحد لنفسه شربة ماء ولا حتى أن يستريح حتى في نومه عندما يلقي برأسه على الوسادة.

رَدَّت بانكسار، وكأنني ما كسرت إلا وهمًا آمنت به من الخواء، وصوتها مرتعش وكأنني أصلحت الأوتار الدفينة بداخلها، والتي يخلقها الوطن فينا بعد أن مزقتها هلاوس الخيانة وإلباسهم الباطل ثياب الحق، وقالت:

ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك متضرر من الأوضاع من الوطن، ولا تنكر حقيقة أن هناك دولًا عربيةً - على الأقل - أكثر جمالًا وأكثر احترامًا لآدميتنا، وأفضل من مصر بكثير.

فلم تلق مني سوي ضحكة لحديثها؛ فقد أخرسها كلامي لدرجة أنها نسيت الشعارات والكلام المغلوط الذي ألبسوه ثوب الثقافة؛ فأصبح مثقفًا كل من تغنى به، وأجبتها:

يا سيدتي.. لا مجال للمقارنة بين وطني وسائر البلدان...

لا مجال للمقارنة بين معشوقة وأم.....

قالت: كيف؟

قلت: أنت المعشوقة، ولكن أمي أمي.. أنت اختارك بإرادتي وبأهوائي، وأرغب بجمالك وأعشقك وأذوب عشقًا فيك، ولكنك لا تملكينني ولا أملكك.. فكل منا محل اختيار الآخر، ونتاج إعجاب قد يزول كما الأشياء تفنى وتزول، ولا قوة في العالم تنسي المرء أمه.

أما هي.. هي الأم.. لم تكن محل اختياري، ولكنها تملكني، لا راحة إلا في أحضانها، لا حرج في حضورها، ولا تَصَنّع أمامها، تقبلتني عريانًا لا لمتعة مثلك، بل لتنظفني بحب دون تَأَفٍّ، وتقبلت بكائي على صدرها قبل الابتسامة في وجهها.

أعطتني دون مقابل.. طبطبتني بضمة صدرها وحنانها دون أن يسعفني طبيب؛ فهي قد لا تملك ثمن الدواء، ولكنها تملك ما لا تملكه أكبر شركات الأدوية في العالم.

ولم أفكر يومًا هل هي جميلة أم لا، ولم أجد فيها العيون الزرقاء ولم تكن شقراء ولا ناصعة البياض مثلك، ولكنها تملك ما لا تملكينه أنت، وتمنحني ما لا تقوى أي امرأة على أن تعطيني إياه.

هي تعنفني وتقسو أحيانًا، ولكني أستعطفها؛ فليس لي أم غيرها، ولا امرأة تحل مكانها لأتمرد.

وعلى من أتمرد.. على من اتصل حبلي السري بأحشائها فاستنزفت دماؤها في أحشائي وكلما أخبروها بذلك ازدادت فرحًا؟!

سأرحل عزيزتي، وفكري في كلامي لنفسك وليس لي؛ فهناك قبر أمي وبعض من بقايا وصاياها لي، سأعود إليها وأتحسس رائحتها التي استاء الناس منها لانشغالها بي حينما كنت طفلًا، تلك الرائحة هي من تعيدني للحياة من جديد كلما قتلني حلم، وتعطيني قوةً للسير كلما تعثرت قدمي بعثرات درب الحياة، وأطمئن على ذاك الخاتم الفضي المتبقي عندها بعد أن أنفقت كل ما تملك عليّ وهو يخدش رأسي حينما تمسح بيدها على شعري.

obeikandl.com

الهلوسة التاسعة

واستغرقت في نومي حتى وصلت محطة بلدتنا.. كنت أفتش هناك بين كراكيب النساء وكانت زوجتي هنا قانعةً بكل شيء.. تصون كل ذرة في نفسها وتتزين وتتجمل طيلة الأسبوع ليوم واحد وهو إجازتي التي أقضيها معها....

زواج صالونات.. نعم، وكنت أظن أنني ما تزوجتها إلا كما أدخلوني للمدرسة؛ لأن سني تطلب ذلك، ونقلوني من صف لصف لسني وتخرجت لسني وتزوجت لسني، وأنا ظن أنني أسابق الزمن، والحقيقة أن الزمن هو من يسوقني ولا أدري إلى أين وإلى متى...

قدر ونصيب كما يسمونه وليس المهم المسميات؛ فالكل مستاء من الزواج والارتباط، والكل يعتريه الشكوى وأنا لا أقوى أن أفسر ذلك سوى أنها الألفة هي من تفعل بنا ذلك....

أن تألف شيئًا فلا تشعر بوجوده، وأن تألف شخصًا فتعتاد وجوده في حياتك.. موجود فقط.. يؤدي ما عليه ويطالب بما له.

كانت هي ذلك الشخص بالنسبة لي.. كما الأب حين نتمرد عليه، ونتمرد على قراراته، وننعت تصرفاته بالرجعية والقصور، ولا نرضى

برأيه، وذلك لسبب واحد.. أننا ألفناه.. وألفنا وجوده؛ فوجوده أنسانا عشقنا له، وأنسانا كل فضل له علينا، وننسى أننا من صلبه، حينما قرر الإقلاع عن احتضان الوسادات، وفعل فعلتنا وتزوج....

هو موجود؛ فلا نأبه به.. وحين يرحل عن دنيانا يرحل معه كل شيء.. فتتحسس رائحته في كل أشيائه.. ستفتقد كل كلمة سمعتها منه يومًا، ستفتقده حتى وأنت على وسادتك بعد أن طرت فرحًا بأن وسادتك أصبحت بعيدًا عنه لتتحرر من قيوده.

كل القيود التي هربت منها يومًا ستفتقدها وكأنها أطواق نجاة.. ستفتقده لدرجة أنك ستعشق وتغرم بكل من يذكره ويذكر سيرته، كلنا نعلم ذلك ولكن الألفة هي القاتل المأجور الذي يقتل كل شعور دفين فينا...

فأخرجت من حافظتي الخطاب الذي أرسلته إلي زوجتي في آخر خلاف بيننا لأعيد حساباتي معها، لأرتب حياتي من جديد، لأستقبل الحقائق بعيدًا عن افتراضات الخيال، قليلًا ما تشتكي، نادرًا ما تثور ولكنها أمسكت القلم لتتبع ذات نهج أشياء انتهجتها يوما لتخبرني وتقول:

زوجي....

نعم زوجي.. فتأبى أناملي أن تكتب لك حبيبي كما في الماضي...

لا أطلب منك أن تبتر أنامل الروتين التي تعزف على أوتار الحياة للحن الزوجية...

أستغيث بك لتحررني منه؛ فقد أصابني لدرجة أنني ما عدت متمردةً كما كنت، أريد أن أتحرر من قيوده لأحرر نفسي من قيود عشقك، وأفتدي نفسي من عبودية الأحلام التي لا تتحقق.

وهم الحب الذي يخلق كل الأحلام فينا.. لم تكن فقط على الوسادة بل كنت أحملها معي لترافقني طيلة يومي وأتمنى بها غد أفضل.

كانت أحلامي كواقع في كل خلوة أسرقها من فراغ الأيام بدونك.. أراها في كل لحن وكل غنوة تعزف على أوتار تلك الأحلام الدفينة، أصدقها بخيالي وأجبر جوارحي والأشياء من حولي أن تصدق تلك الهلاوس فقد سئمت هلاوس الوسادات.

ماذا كنت تنتظر.. أن أظل كما أنا. . وهل أنت كما كنت قديمًا؟ لقد تغيرت ألف مرة من أجلك ولم تبالِ.. إن كنت مجرد زوجة بالنسبة إليك، فلم تعلم يومًا أنك كنت كل العالم لي...

كنت أحلامي البسيطة حين سمعت عن الحب، وكنت أحلامي المبالغ فيها حينما تسلل الحب كفكرة إلى خيالي...

حتى الاهتمام.. لم أجنه رغم تضحياتي، ولم أكافئ عليها، ولم يكن هناك مقابل سوى بضع كلمات تسمعها لي كلما تلاقينا تغلق بها كل نافذة قد نطل منها على حياتنا، وتطفئ كل نيران الشوق بيننا.

توسلت إليك أن تضف لحياتنا اهتمامًا كما الأشياء الأخرى، أن تصنع لي رفًّا ضمن الأرفف المعلقة على جدران قلبك.

في كل مرة كنت ترحل فيها كنت أتوسد أملًا جديدًا بأنك ستعود لي كما كنت في الماضي. . سترجع لتلتف حولي يداك لتحتضني بدلًا من تلك الوسادة التي استعضت بها عنك، تعود لتفتح ذراعيك لي فقط وتبتسم.. تحتضني أنت مرة؛ فقد ضممتك ألف مرة.

أحلام طفلة، ولكنها كانت كفيلةً بأن تحرك مياه الشوق التي ركدت في بحيرة الحب في قلبي؛ فمات فيها في أعماقها كل صبر.. وشاخت على شواطئها كل أشجار الأمل.

أن تقول لي كلمةً. . فقط كلمة كانت كفيلةً بأن تمحو كل خطاياك لديّ. . أن تحمل لي وردةً واحدةً. . كان ذلك كافيًا بأن يطيب كل جراح خلفتها أشواك هجرانك وجفاك.

لا تعدني بما أخبرتك به.. وضع كل باقات الزهور على قبر الحب؛ فلن يكون ذلك شفيعًا لك، ولن يبعث مرةً أخرى؛ فقد التهمت جسده أرض الواقع بما أهلنا عليه من أتربة اليأس.

رحل وسيبقى شبحه ليطارد كلا منا كي لا نفعل بغيره - إن قدر لنا الحب مرةً أخرى - ما فعلناه به.

واسترجعت حكايتي؛ فأنا الثالث الذي لم يلق بالسجن عبثًا، وإنما أراد الله أن يكون السجن حمايةً لي من الظلم؛ فالسجن ظلم واحد، والحكم حكم واحد، أما هناك.. فالظلم أنواع والحكم للأهواء والرأي العام.

خدمات كانت توزع عليّ ولا أرد الظلم، لم يكن لي ظهر أرتكن عليه كلما مالت علي الأهواء، نوبتجية أفرغ فيها طاقتي؛ فأنا لست مسئولًا سوى عن بضع محجوزين وبعض الدفاتر، ولا شأن لي بمن معي؛ فهم يعلمون أكثر مني.

ولأنني أخشى الظلم، ولأنني قروي روتيني، لا ينقصني سوى طلمبة ماء حتى اغتسل عندها كل صباح حاملًا منشفتي على كتفي وصابونتي في يدي.

ولان استراحتي أعلى القسم الذي أعمل به؛ فلا أعرف شيئًا عن الخارج، سوى أن هناك أضرحةً أذهب كل حين لأدعو الله عندها، تارةً عند السيدة نفيسة، وتارةً عند السيدة زينب، وتارة عند السيدة عائشة.

كل ما يشغل تفكيري: متى يأتي راتبي؟ وفي أي شيء سأنفقه؟ وهل سيفي بكشف حسابي بدكان بلدتنا؟ هل الراحات الأسبوعية مفتوحة أم لا؟ لأطير فرحًا إلى أهلي، لأفترش الرمال الصفراء في الصباح، وتداعب أشعة الشمس جسدي لتخرج كل مس لجن العمل وظلام النوبتجيات.

بعض من كسر الخبز القديم حلمي.. لأضعها على الجمر وأصنع الشاي بجوارها، وزوجتي هناك تتوسد قدمي وتلتحف يدي، وتخبرني أنها تشوقت لدفء صدري؛ فقد سئمت دفء النيران.

خطوط بأناملي على الرمال الصفراء بعبثية هي بمثابة خطوط أكشط بها إرهاق العمل وملل الوحدة طوال الأسبوع.

لا أدعي حبي لبلدتي، وإنما هو عشقي لمنزلي البسيط؛ فلا زال طينيًا، ما زال ببكارته التي انتهكت في كل قريتنا، أقمنا منزلًا جديدًا بجواره، ولكنني أعشق ذاك المنزل القديم، علبة لون ببضع جنيهات كفيلة بأن تصنع منه منزلًا جديدًا.

الأشجار من حولك هي رفيقك بالنهار وأنيسك في ظلمات الليل، نسيم الصباح وزقزقة العصافير كفيلة بأن تنسيك كل وحدة مللت منها، كل شيء له رونق وجمال، ويكفيني هذا؛ فالفناء هو أن تنفق ساعات عمرك في أحلام المادة.. أن تمتلك وتملك، وما أسهله

من حلم سيتحقق، ولكنك ستتعثر حتماً في انفاقه؛ فالعمر ولى دون ضحكة بلا حسابات، ودون ابتسامة بلا مقابل!

فالصبا إن وَلَّى لن تبلغ بالشباب طيشه وعبثيته، وإن ولَّى الشباب فلن تعيده إليك كل ملايين الأرض، عمر واحد وقصة واحدة.. وقررت أن أعيشها كما أحب ببساطتها، وألا أخاطر بأحداثها؛ فينفر منها من سيرويها عني يومًا.. كل شيء بسيط في حياتي تعلقت به حقًّا.

كل شيء له دور في حياتي إلا أنا.. زوجتي.. شقائي..المنزل القديم والأشجار يصنعون ألوان الطيف في حياتي، تزداد عاطفتهم، وودهم يعلو إلا أنا، لا أقدم لحياتي شيئًا.

وفي أحد أيام عملي - وأنا باستراحتي - صحت أجفاني على أصوات متعالية وصياح وأصوات أعيرة نارية، نظرت من النافذة وأبصرت ألسنة النيران تخرج من نوافذ القسم.

لم أدر ماذا أفعل، ولكن الله أراد أن ينجيني، وضعت نقودي في جيب سروال بيجامتي وسلاحي أسفل إبطي، وكلما أراد أن يسقط أنقذ الله حياتي؛ فسقوط سلاحي وسط تلك الجموع هو بمثابة سقوط لحياتي.

الكل يقتحم.. كل أثاث القسم محمول على الأكتاف.. البعض هنا يسرق، والآخر يصفي حساباته، والقليل يحرق صفحات التسجيل لينهي ملفه الإجرامي ويعيش نظيفًا، ولأنني القروي الساذج لم ينتبه إليّ أحد.

لم يهمني كل هذا، ما يعنيني أن أنجو بنفسي، طوفان عارم من الغضب اجتاح طرقات القسم وغرفه المشتعلة بالنيران، استحل الجميع كل شيء.. القتل.. السرقة.. السباب.. استحلوا كل شيء.

وما بين دفع هذا وجذب ذاك.. أنجو بنفسي، حتى باب القسم.. بجواره مكتب نائب المأمور الذي كنا نسميه شيخ العرب؛ لفرط طيبته وتساهله وتسامحه، ودأبه على حل كل الخلافات وديًّا بدلا من عصا القانون التي لا تطبق إلا على الضعفاء أمثالهم.

يقف في ركن مكتبه الذي التهمت النيران معظمه ونفثت دخانها من على الجدران بعد أن احترقت ستائره، واحترق ما به من أدراج بعد أن تآكلت الأوراق بداخلها.

التف حوله بعض من كانوا هناك يطلبون منه فتح الخزينة عهدته، أعلم أن بها خاتم القسم ومرتبات الضباط والأفراد، ولكن لا حاجة لنا بها، فلينس التضحيات أمام اللاأخلاق والهمجية.

استطعت أن أقنعه أن يفتحها بعد أن أوهمتهم بـأنني معهـم، وأن هناك حسابات بينـي وبينـه سأصـفيها، وأخرجـت سـلاحي أمـامهم وهددته، واصطحبته ولذنا بالفرار.

ونحن على بعد أمتار من القسم. . انتبه إلينا أحـدهم حـاملًا سـلاًحا آليًا من أسلحة القسم، وأطلق النـيران صـوبنا، وصرخ: دول ضـباط أهم.. فأخرجت سلاحي وأطلقت النيران نحوه.

أعلم أني أصـبته.. فليـذهب إلى الجحـيم قبـل أن يقتلنـا؛ فحيـاتي لم تكن أرخص من حياته، ونفسي لم تهن عليّ يومًا.

وأصبت أنا برصاصة في ذراعي، وتسللنا والخـوف تطاردنـا أشـباحه، حتى وصلنا إلى منزله، وقارورة المداد الأحمر للدهر تسكب؛ فـتملأ الشوارع بالقتل والذبح، كأنها لعنة من السماء حلت على الأرض.

ومـا إن وصـلنا إلى منزلـه حتـى اسـتقبلته زوجتـه وأبنـاؤه بالبكـاء والاحتضان، يتحسسون وجهـه وكـأن المعجـزة أننـا نجونـا، وجلسـنا نتابع الأحداث عبر التلفاز، وكل الأخبار ما بين قاتل ومقتول.

أعدوا لي غرفةً صغيرةً لأمكث فيها حتى الصباح، وأي صباح بعد أن ساد الظلام، وأفلت كل شموس الفضيلة؟ وأي صباح هذا وأي عيون قد تغفو بعد ما كان؟ وأي ضمير سـيتركني دون أن يحاسـبني؟ وإن لم يفعل.. فهناك وسواس لن يدعني أخلد للنوم إلا وأنا مهزوم.

والحقيقة أن جميعنا قد خان، خنّا الأخلاق والرحمة، خنّا جميعًا العدل، فمرحبًا بكل الخيانات طالما خنا وحلت لعنة السماء علينا.

وهكذا الأيام.. كلما فتحت فاهها لتبتسم.. خدعتنا؛ فنفثت كل السموم من أحشائها كما الثعابين، ولا نملك إلا أن نهرول لنطبب أنفسنا مما خَلَّفَته فينا.

وجلست بذات القطار عائدًا كما الآن لذات الرمال التي ما ثارت عليّ يومًا، وما سئمت مني وما آذتني، وستحتضني حين وفاتي عندما يهرول الجميع ليهيلوا الرمال على قبري، وهناك قريتنا التي لن ترحمني ولن تغفر لي ما فعلته وما لم أفعله؛ فالفراغ في مساء القرى كفيل بأن يجعل من الجن ملائكةً، ومن البشر شياطين.

فما أكثر خرافات القرى وهلاوس يقظتهم، ولا أروع من أساطيرهم وقصصهم، فمرحبًا بي قصة المساء لديهم، ولكنني لم أحبك قصتي لمن سيرويها منهم.

وأنا هناك - وبعد قرابة الثلاثة أشهر - علمت بالتحقيقات، ومثلت لها، ووجهوا لي اتهامات بالقتل، وكأنك وجب عليك أن تُقْتَل وأنت تصفق لقاتلك، وأن تُظْلَم وأنت موقر ظالمك، وكأن حق الدفاع عن نفسك قد اسْتُبِيح كما استبيحت كل الحقوق الأخرى.

ومكثت في سجني بضعة أشهر، كانت كفيلةً بأن أكره كل رمال بلدتنا، ولكنني اشتقت أكثر إليها، وساقني حنيني بأن أحلم بها كل ليلة، وأتحسسها في كف زوجتي كلما أتت لزيارتي.

كان الحكم بالبراءة مما أسنده القانون إلي؛ فقد استخدمت حق الدفاع الشرعي المكفول لي، البراءة هناك في قاعة المحاكمة، وأين البراءة من قاعات بلدتنا التي تنعقد كل مساء على الطرقات وفي المقاهي وعلى كل كوبري، سأحاكم كل يوم.. ولا دفاع لي، ولا شفيع عندهم؛ فقد انتظروا طويلًا ليجددوا قصص المساء؛ فقد سئموا أبطالها.

obeikandl.com

obeikandl.com

الهلوسة العاشرة

ما إن وصلت لمنزلي حتى أخبرني الجميع أن زوجتي أجرت الأشعة وأخبرها الدكتور أن حالتها الصحية في خطر، وأنه يجب أن تجرى لها عملية جراحية على وجه السرعة، وبالفعل تواجدنا بالمستشفى، وانتظرنا حتى دخولها.

دلفت إلى غرفة العمليات وهي تبتسم، رغم أن الجميع أخبروها بسوء حالتها وتدهورها... تبتسم لي.. وكأنها قررت أن آخر ما تراه عيناها هو أنا.... خجولة هي زوجتي.. حتى في أحلك حالات الخطر.

تبتسم لي وحدي رغم كل كلامها وتمردها، تبتسم وهي تخبرني أنها اشتاقت إليّ وأنا أخبرها أنني اشتقت إليها، نسيت كل جروح الماضي، وتبسمت.

وأغلقت الممرضة باب غرفة العمليات، وكأنها أغلقت الباب على كل هلاوس الوسادة. . أغلقت الباب عليّ وليس عليها.

أنا حبيس غرفة العمليات وليس هي، هي تخضع لعملية خطيرة، ولكنها تخضع للحسابات والعلم والمعطيات وتوفيق الله أولًا، أما

أنا.. ففي داخلي ملايين الجراحين، وليس منهم بد؛ فدوائي حينما تخرج هي وأرى ابتسامتها مرةً أخرى.

مئات الجراح نزفت فيّ ولا يستطيع أحد إبرائي منها سواها، هي الطبيب لعالِم بالمرض، ولكنها استخدمت معه دواءً طويل الأمد هو العشرة، مع قليل من فيتامين الود وبعض أقراص الشوق وكبسولات اللهفة، مع محلول الصبر الذي تقطر بوريدي؛ فأنهكني بدلًا من أن يقويني.

أريدها أن تخرج بشدة، تخرج لأخبرها أنها منتهى العشق لي، وأنها رسول السماء لتهديني وتغفر بعض زلاتي، فلتخرج.. وسأضع خدي على قدميها كما تمنيت أن أفعل مع والديّ،

فلتتماسك وتخرج لي وحدي، ولا حاجة لها بالجميع الذين كانوا يشغلون أوقاتها وأنا بعيد عنها، سأجعلها تستغني عن الجميع بي، ستفتقد الكل بي.

وبعد ثلاث ساعات تلفت فيها أعصابي ودعوت فيها الله وكأنني ما دعوته من قبل. . خرجت تحت تأثير المخدر، وظلت متعبةً طيلة إجازتي، واستلزم الأمر سفري وهي طريحة الفراش بالمستشفى، واستلزم القلب أن يبوح؛ فخططت مكتوبًا لها، وتركته وسافرت.

كـالمراهقين كنـت، ولكننـي بحاجـة إلى أن أبـوح.. أن أعـترف.. أن أعدها لمرة واحدة فقط، وسأفي بوعدي وكل الوعـود السـابقة التـي طالما تمنت أن أفي بها.

حبيبتي...
أنت الفرحة التي تجعلني أنتشي؛ فتقبض أنفاسي وتذبـذب حـروفي وتراقص لساني؛ فتخرج كلماتي مبعثرةً كما السعادة التي خرجت من قلبي كقطرات المطر التي تتساقط من عنـاق سـحابتين دون خجـل وأمام الجميع.

كفانا ما ألفته مسامعنا من كلام وسئمته عقولنـا، فلـن أخـبرك بـأني أعشقك، ولا أنني أحبك، ولا أن الشوق قد آلمني في مضجعي بعيـدًا عنك، سأخبرك فقط أنني لن أفقدك بعد اليوم.

سأسـتيقظ كـل صـباح لأضـفي عـلى كـل أعـمالي صـبغة حبـي لـك، سأجعل الأشياء التي أصنعها تخبرك أني لن أفقـدك، حتـى سـلوكياتي وأخلاقي ستخبرك أني أحبك...

لن أتعجل معرفتـك ذلـك.. حتـى وإن توفـاني الله.. سـتبقى أفعـالي وأشيائي في كل صباح تخبرك أنـك كنـت الصـباح لي.. حتـى كـدت لا أرى الظلام من ساعة عشقك.

سأجعل ما تشبث بجدران منزلنا من دخان سجائري وكل ما نفر منه أنفك يخبرك بأنك كنت العبق الذي يعطر أنفاسي، ستخبرك ملابسي أنني ما ارتديتها إلا لك.

وفي كل مساء ستخبرك أبواب المنزل التي كنت أسكرها أنني ما كنت أفر من المنزل إلا لأجدد بحر الشوق فيك؛ فيلقي لي بالدرر، فكما الأطفال كنت عندما يمتنعون عن الطعام رغم الجوع.

ستتمرد وسادتي وتثور لتخبرك أنني ما وضعت رأسي عليها بدونك، وما تسلق النوم إلى أجفاني إلا وأنا أفكر فيك، وأفكر في إبداع الله الذي تجلى في وجهك.

لن أفقدك...

لن تهربي مني ومن أشيائي وصنائعي، حتى وإن أحرقت كل ما بيننا.. سيطاردك الملل الذي كنت تشكينه إلي؛ فتتذكرينني، وستقودك أحلامك البسيطة لتتحقق؛ فتتذكرينني، أو تفقدينها؛ فتتمنين أنني لا زلت موجودًا لأواسيك، حينما نلقي برأسينا على الوسادة.

لن أفقدك...

ودعيني وذاكرتي لتقتص مني فيما أخطات فيه؛ ففي الذاكرة جراح تأبى الأيام أن تنسينا إياها، ومعاصٍ يأبى الندم أن يمحوها، وأحلام لا مكان لها إلا على الوسادة...

"لا تسـجن معرفتك و بادل كتبك"

القراءة هي الحياة، فنحن نقرأ لنتعرف على خـبرات وحكايـات الآخرين، نقرأ لنتعلم شيء جديد، لنتعرف من قرب على عـوالم قـد لا نعرف عنها شيء، لذا صديقي القارئ لا تسـجن معرفتـك وبـادل كتبك مع الآخريين.

فلا تجعل هذا الكتاب يقف بين يدك وحـدك، فمـن خلالـه قـد تكون أستمتعت، وتذوقت متعة القراءة، وقـد تكـون تعرفـت عـلى شيء جديد، فلا تبخل عن من حولك بهذه المتعة.

موقع دار الكتب
"نحن نحترم الكتاب"

obeikandl.com

إصدارات موقع دار الكتب:

1. **خواطر قلب في زحمة الحياة**
2. **قطعتا ثلج في تموز**
3. **المكنة طلعت قماش**
4. **على خطى مجهول**
5.
6. **مملكة الشياطين**
7. **سر الظل الخفي**
8. **سماحة**
9. **حقيقة الخديعة**
10. **السماء والآيات الكونية**
11. **المشجر المبسط في أنساب الحسن والحسين ج1**
12. **المشجر المبسط في أنساب الحسن والحسين ج2**
13. **المشجر المبسط في أنساب الحسن والحسين ج3**
14. **الشاطر حسن**
15. **صاحب المقام**
16. **إيران الخميني.. شرطي الغرب**
17. **رياح القبور**
18. **خواطر قلب في زحمة الحياة**
19. **ومضات**

obeikandl.com

20. قصائد في عشق النساء
21. الفوضى العالمية.. من العصور الامبراطورية للتنظيمات السرية
22. الذين أوتوا الحب
23. كلام لن يفهمه غيرك
24. فيرجينيا سيكريت
25. مدينتنا غير الفاضلة..إرحلي
26. ومضات من الماضي
27. طال الرنا
28. حرية وكرامة
29. حوار مع النفس
30. كارمن
31. ومضات من الماضي
32. رياح القبور
33. الفرنسين والشرق
34. اغتيال رفيق الحريري..
35. البحر الميت وكفة برج الميزان
36. العمر لحظات
37. آية الله الخميني بين الثورة و الطغيان.
38. قبل أن أموت.
39. فتاة شرقية.

obeikandl.com

40. كاتيا.
41. شمس.
42. التعلم النشط.
43. نبضات مغترب.
44. رأيت الشيطان.
45. حل قضية الجبر والاختيار وقضايا آخرى.
46. لوزة قطن.
47. حياة وحنين.
48. رحيق العمر.
49. عواطف.
50. الوهم.
51. الاعجاز العلمي في القرآن الكريم.
52. تاريخ مصر الفرعونية.
53. ديوان البت سعاد.
54. الكفايات المهنية للتعليم ما قبل الجامعي.
55. الموعد
56. اذا لم تزد على الحياة شيئا كن انت زائد عليها
57. عائدون من بين الانقاض
58. -حذاء جديد
59. حلقات مفرغة

obeikandl.com

60. يوميات طبيب في وطن مسلوب
61. أصحاب الكرش
62. جئت ورحلت
63. سخصية مصر
64. ديور... ابن الحرب
65. رجل مدخر
66. ليلة فى الرنفة
67. استراتيجيات التسويق عبر الفيس بوك
68. يوميات مع نفسى
69. سلسلة القائد المتوازن.
70. يوميات واحد فيس بوكاوى
71. نصف انسان
72. اريد ان اكون زوجة ثانية

obeikandl.com